
د. نبيل فاروق
روايات مصرية للجيب
رجل المستحيل
رجُل وجيش
142
www.liilas.com/vb3
^RAYAHEEN^
المؤسسة العربية الحديثة

رجُل وجيش

- كيف يمكن أن يواجه (أدهم) جيشاً كاملاً ، فى صحراء (المكسيك) ؟!
- هل يمكن أن تنجح منظمة (X) فى خطتها الشيطانية ، للسيطرة على منظمة (المافيا) ؟!
- ترى من ينتصر فى تلك الحرب الرهيبة المستحيلة ، بين (رجل وجيش) ؟!
- اقرأ التفاصيل المثيرة ، وقاتل بعقلك وكيانك مع الرجل .. (رجل المستحيل) ..



د. نبيل فاروق

رجل المستحيل سلسلة روايات بوليسية للشباب زاخرة بالأحداث المثيرة

142



(الأوراق المصرية)

رجل المستحيل

(أدهم صبرى).. ضابط مخابرات مصرى، يرمز إليه بالرمز (ن-١).. حرف (النون)، يعنى أنه فئة نادرة، أما الرقم (واحد) فيعنى أنه الأول من نوعه؛ هذا لأن (أدهم صبرى) رجل من نوع خاص.. فهو يجيد استخدام جميع أنواع الأسلحة، من المسدس إلى قاذفة القنابل.. وكل فنون القتال، من المصارعة وحتى التايكوندو.. هذا بالإضافة إلى إجادته التامة لستّ لغات حيّة، وبراعته الفائقة فى استخدام أدوات التنكّر و(المكياج)، وقيادة السيارات والطائرات، وحتى الغواصات، إلى جانب مهارات أخرى متعدّدة.

لقد أجمع الكل على أنه من المستحيل أن يجيد رجل واحد فى سن (أدهم صبرى) كل هذه المهارات.. ولكن (أدهم صبرى) حقق هذا المستحيل، واستحق عن جدارة ذلك اللقب الذى أطلقته عليه إدارة المخابرات العامة لقب (رجل المستحيل).

د. نبيل فاروق

١ - القتلة..

أشارت عقارب الساعة إلى منتصف الليل فى (القاهرة)، وخلت الشوارع من المارة أو كادت، فى المنطقة المحيطة بمبنى المخابرات العامة، فى (كوبرى القبة)، وهدأت الأمور على نحو واضح فى المكان، حتى صار من الطبيعى أن يسمع المرء فى وضوح وقع أقدام أى مخلوق، يعبر الشارع فى تلك الساعة..

ولكن الأمر داخل مبنى المخابرات، الذى يبدو غارقًا فى صمت وسكون خارجيين، كان يختلف تمام الاختلاف من الداخل..

فهناك، فى حجرة الاجتماعات الصغيرة، الملحقة بمكتب المدير، كانت هناك شعلة متقدة من النشاط والحركة، مع من تموج بهم الحجرة، من المدير

ومعاونيه ، وعدد من كبار الخبراء ، والكل يعكف على دراسة خريطة كبيرة لصحراء (المكسيك) ، فى محاولة مستميتة لتحليل آخر المعلومات ، التى وردت من هناك ، حول مصير (أدهم صبرى) ..

فمنذ أقل من يوم واحد ، غادر (أدهم) (موسكو) ، فى طائرة خاصة ، تابعة للمخابرات الروسية ، بعد أن قضى مع فريقه على زعيم منظمات (المافيا) الروسية هناك ، فى طريقه إلى (نيويورك) ، سعيًا وراء استعادة زميلته السابقة (جيهان) ، التى اختطفتها منظمة (X) للجاسوسية ، من مستشفى دونا (كارولينا) ، زعيمة عائلات منظمة (المافيا) الأصلية ، فى الولايات المتحدة الأمريكية كلها .. وكان (أدهم) يعلم أنه فخ واضح ؛ لاستدراجه إلى هناك ..

ولكنه لم يتردد فى الذهاب ..

كانوا يتحدونه ..

وقبل هو التحدى ..

ولكن منظمة (X) كانت تعدّ له مصيرًا آخر ..

فمع سيطرتهم على مساعد الطيار ، فى الطائرة الروسية ، أمكنهم إجباره على الانحراف بمسار الطائرة ، لكى تتجه إلى (المكسيك) بدلا من الولايات المتحدة الأمريكية ..

وبخبرته فى الطيران ، أدرك (أدهم) ما يحدث ..

وحاول منع حدوثه ..

ولكن الطائرة كانت قد تجاوزت الساحل الشرقى الأمريكى بالفعل ، وعبرت خليج (المكسيك) ، واتجهت نحوها بالفعل ..

وبعد محاولة عنيفة ، نجح (أدهم) فى اقتحام كابينة قيادة الطائرة ، ولكن مساعد الطيار الروسى أطلق مسدس الإشارة داخلها ، و ...

واشتعلت الطائرة ..

وعلى ارتفاع منخفض ، عبرت الطائرة الروسية المشتعلة ساحل (المكسيك) ، وانطلقت عبر الصحراء الشاسعة ، قبل أن تهوى على الرمال فى عنف ..

وعلى الرغم من بشاعة الحادث ، نجا (أدهم) مع المضيفة الروسية الحسناء (هوليا) ، فى حين لقى باقى الطاقم كله مصرعه ..

نجيا ليواجها الموت على نحو أكثر بشاعة ..

فى قلب الصحراء ..

وفى الوقت الذى راحت فيه المخابرات المصرية تبذل قصارى جهدها ، فى محاولة لمعرفة مصير رجلها الأوَّل ، والذى راحت دونا (كارولينا) تقاتل فيه ، للحفاظ على موقعها وكيانها ، كان (أدهم) وتلك المضيفة الروسية يواجهان الموت ، المتمثِّل فى طائرة صغيرة ، مزوَّدة بمدفع آلى ، أطلقها خلفهما الجنرال (ألنزو) ، جنرال الجيش المكسيكى السابق ، الذى استأجرته منظمة (X) ، لسحق (أدهم) فوق رمال (المكسيك) ..

وبمهارة مدهشة ، نجح (أدهم) فى إسقاط تلك الطائرة ..

ولكن هذا كان مجرَّد بداية ..

فوسط صحراء شاسعة ، تمتدّ إلى مدى البصر ، فى كل الاتجاهات ، انطلق جيش الجنرال (ألنزو) ، مع هدف واحد ..

أن يسحق (أدهم) ..

وبأى ثمن ..

وكانت مواجهة عنيفة ، مخيفة ، رهيبة ، مستحيلة ..

مواجهة فى قلب الصحراء ، بين رجل ..

وجيش(*) ..

ولم يكن رجال المخابرات المصرية يدركون كل هذا ..

آخر ما وصلهم من معلومات ، هو أن طائرة (أدهم) قد سقطت فى صحراء (المكسيك) ..

مشتعلة ..

(*) لمزيد من التفاصيل ، راجع الجزء الأوَّل (رمال ودماء) .. المغامرة رقم ١٤١

وكان هذا الخبر رهيبًا بالنسبة لهم ويقلب كل الأمور رأسًا على عقب تمامًا ..

وفى توتر مرير ، قال أحد معاونى المدير :

ـ يا إلهى ! كل ما بذلناه إذن كان دون فائدة .

التفت إليه المدير فى صرامة ، قائلاً :

ـ لا تقل هذا .

غمغم الرجل فى ارتباك :

ـ ولكن المعلومة واضحة مؤكدة ياسيدى .. لقد سقطت الطائرة مشتعلة ، فى قلب صحراء (المكسيك) !

انعقد حاجبا المدير فى صرامة متوترة ، وهو يقول :

ـ هذا لا يعنى شيئًا .

ردد الرجل فى دهشة بالغة :

ـ لا يعنى شيئًا ؟!

أجابه المدير بنفس الصرامة :

ـ بالتأكيد .. الكثير من حوادث الطيران تترك خلفها أحياء ، ناهيك عن أننا نتحدث عن (ن ـ ١) ، وليس عن أى رجل عادى .

تبادل الرجال نظرة صامتة ، قبل أن يسأل أحدهم :

ـ بم تأمر يا سيادة المدير .

أجابه المدير فى حزم :

ـ سنواصل كل شىء ، باعتبار أن (ن ـ ١) مازال على قيد الحياة .

وصمت لحظة ، ثم أضاف فى قوة :

ـ وأنه يحتاج إلى أية مساعدة، يمكننا أن نقدمها إليه .

أشار خبير الطيران بيده ، قائلاً :

ـ أنا أؤيد هذا الرأى .

قال المدير فى حسم :

ـ وهذا هو الاتجاه ، الذى سنعمل فيه جميعًا ..

فريق منا سيبدأ فى جمع كل المعلومات الممكنة ، فى حين سيعمل فريق آخر على الاتصال برجالنا فى الولايات المتحدة الأمريكية ؛ لتنسيق العمل بيننا وبينهم ، وتدبير عملية إرسال فرقة إنقاذ عاجلة ، إلى (ن - ١) .

قال كبير معاونيه فى اهتمام :

- ولكننا لم نحدد موقع سيادة العميد (أدهم) بدقة بعد يا سيدى .

أجابه المدير فى حزم :

- هذه مهمة الفريق الثالث .

ثم استدار إليه ، مستطردًا :

- نحن .

نطقها بمنتهى الحزم والحسم ، فعاد النشاط الجم إلى المكان فى لحظات ، فى حين تضاعف انعقاد حاجبيه هو ، وأعماقه تلتهب بسؤال مخيف ، لم يستطع حتى احتمال إجابته سلبيًا ..

تُرى هل نجا (أدهم) من تلك الميتة البشعة فى صحراء (المكسيك) ؟! هل ؟!

* * *

تألقت عينا الجنرال (ألتزو) ، وهو يفتل شاربه الضخم ، مع ابتسامة كبيرة على شفتيه ، وعيناه تتابعان طائرة (لورا كيلرمان) الخاصة ، التى هبطت فى ذلك الممر الخاص ، الذى صنعه رجال ، أمام قلعته مباشرة ، فى قلب صحراء (المكسيك) الشاسعة ، ولم يكد يراها تغادر الطائرة ، حتى هتف فى حماسة :

- ها نحن أولاء نلتقى مرة ثانية ، يا جميلة الجميلات .

قاومت بشدة ذلك الشعور بالامتعاض فى أعماقها ، وهى ترسم على شفتيها ابتسامة ، قائلة :

- مقابلة الرجال من أمثالك لها دومًا معنى خاص يا جنرال .

انطلقت من حلقه ضحكة عالية مقيتة ، وهو يلتقط يدها ، ليعاونها على هبوط سلم الطائرة ، قائلاً :

ـ كلمات رائعة ، من امرأة فاتنة ..

سرت فى جسدها قشعريرة باردة ، مع لمسة أصابعه ، ولكنها قاومتها أيضًا ، وهى تسحب يدها فى رفق ، متسائلة :

ـ هل تمكنتم من مصرع رجل المخابرات المصرى ؟!

انعقد حاجباه الكثان فى حزم ، وهو يقول :

ـ إنه لم يلق مصرعه بعد .

توقفت هاتفة :

ـ ماذا ؟!

أجابها فى سرعة :

ـ إنها مسألة وقت فحسب .

قالت فى حدة ، وهى تتجه نحو القلعة ، بخطوات واسعة سريعة :

ـ لو أنك قرأت ملف ذلك المصرى ، لأدركت أن القبور تمتلئ بالعشرات ، الذين نطقوا يومًا العبارة ذاتها ، وكلهم لقوا مصرعهم ، وبصمته على رءوسهم .

قال فى صرامة ، وهو يحث الخطى للحاق بها :

ـ هذا لن يحدث هنا .

لوّحت بكفها ، قائلة :

ـ كلهم أيضًا تصوّروا هذا .

افسح الجنود لهما الطريق ، وهما يعبران إلى ساحة القلعة ، مع قوله الساخط :

ـ الأمور تختلف هنا كثيرًا .

توقفت بغتة ، والتفتت إليه ، تسأله فى حدة :

ـ وفيم تختلف ؟!

لوّح بيده ، فى حركة مسرحية ، وهو يجيب :

ـ فى كل شىء .

وشدّ قامته ، وهو يفتل شاربه الضخم مرة أخرى ، متابعاً :

ـ لو راجعت خريطة (المكسيك) ، لوجدت أن هذا الجزء من صحرائها يختلف تمام الاختلاف ، عن كل الأجزاء الأخرى .. فهنا الصحراء تمتدّ لعشرات الكيلومترات ، دون مرتفع واحد .. صحراء نصف جبلية ونصف رملية ، لايمكنك أن تجدى فيها صخرة واحدة ، يمكن الاختفاء خلفها ، كما لا توجد بها ينابيع أو آبار ، يرتوى منها الشارد أو التائه .. ولقد سقطت الطائرة الروسية هنا ، فى هذه المنطقة ، التى تقع كلها تحت سيطرتى .. ولقد أرسلنا طائرة استطلاع ، أكدت أنه لم ينج من الحادث سوى رجل المخابرات المصرى ، وفتاة من الطاقم .

سألته فى حذر :

ـ ومن أدراك أنه ذلك الذى نجا ؟!

مال نحوها ، قائلاً فى حزم :

ـ لقد أسقط الطائرة .

اتسعت عينا (لورا) لحظة ، قبل أن ترفع أحد حاجبيها وتخفضه ، ثم تلتقط سيجارة من علبتها ، وتدسّها بين شفتيها الجميلتين ، مغمغمة فى انفعال :

ـ إنه هو .

أسرع يشعل سيجارتها ، قائلاً :

ـ (رودريجز) أيضًا أكدّ هذا .

نفثت دخان سيجارتها ، وهى تردّد فى حذر :

ـ (رودريجز) ؟!

أجابها فى سرعة :

ـ الكولونيل (رودريجز) .. مساعدى وأركان حربى .. لقد كان أحد أبرز الضباط فى جيشى ، ثم ..

قاطعته فى ضجر :

ـ أهذا كل ما فعلتموه ؟! تأكّدتم من هويته فحسب .

ابتسم ، مجيبًا :

ـ إنه لن يذهب بعيدًا ، فالصحراء كما أخبرتك ،

تمتد من حوله إلى مدى البصر ، فى كل الاتجاهات ، وليس هناك مكان واحد ، يمكن أن يذهب إليه ، ليختفى من جيشنا ، الذى أرسلناه خلفه .

ردّدت فى اهتمام :

ـ جيشكم ؟!

أشار بذراعه إلى ما حوله ، قائلاً فى زهو :

ـ نعم .. جزء من ذلك الذى ترينه حولك ..

أدارت عينيها فيما حولها ، وهى تنفث دخان سيجارتها فى قوة ، قبل أن تسأله :

ـ أتعشّم أن تكون قد أرسلت عددًا كافيًا .

أومأ برأسه إيجابًا ، وقال محاولاً التأثير عليها :

ـ خمسين رجلاً ، وثلاث سيارت (جيب) مسلّحة ، ودبابة ، مع مدفع ميدان ، وكل هذا بقيادة الكولونيل (رودريجز) شخصيًا .

ثم مال نحوها ، متابعًا بابتسامة كبيرة مقيتة :

ـ هل تعتقدين أن فارسك المصرى ، يمكن أن ينجو من كل هذا ؟!

بدا التردّد على وجهها ، فاعتدل ، قائلاً فى غضب :

ـ إنها معادلة بسيطة واضحة يا سيّدتى الجميلة .. رجل أمام جيش كامل ، وسط صحراء منبسطة إلى مدى البصر .

واستعاد ابتسامته ، وهو يضيف :

ـ ما النتيجة فى رأيك .

تطلّعت إلى عينيه مباشرة ، ونفثت دخان سيجارتها فى وجهه ، وهى تبتسم ابتسامة ساحرة فاتنة ، مجيبة :

ـ كارثة .

وخفق قلبه فى منتهى العنف ، وهو يلهث فى أعماقه ، أمام جمالها الساحر ، هاتفًا بكل حماسة وانفعال الدنيا :

ـ بالتأكيد يا جميلتى .. بالتأكيد ..

لم يدر لحظتها كم كانت إجابتها صادقة ..

فالنتيجة الحتمية ، لمواجهة كهذه ، بين رجل وجيش ، هى كارثة ..

كارثة بكل المقاييس ..

* * *

لم يكد (رودريجز) يقترب بجيشه ، من حطام الطائرة الروسية ، المنتشر على مساحة مائتى متر ، حتى أشار بيده ، هاتفًا فى صرامة :

ـ انتشروا .

مع أمره البسيط المقتضب ، تحرك الرجال بمهارة حقيقية ، وحنكة تشف عن تدريب جيد رفيع ، إذ توقفت الدبابة مع السيارة (الجيب) ، التى يركبها (رودريجز) ، وفصلت (الجيب) الثانية مدفع الميدان الذى تجره ، لينضم إلى الدبابة وسيارة (رودريجز) ، قبل أن تنطلق مع (الجيب) الثالثة ، لتدوران حول الحطام من الجانبين ، فى حين تحول الجنود الخمسون بخيولهم ،

إلى دائرة واسعة ، أحاطت بالحطام ، على اتساع انتشاره ..

وعبر جهاز الاتصال اللاسلكى ، هتف (رودريجز) :

ـ هل يلمح أحدكم الرجل والمرأة ؟!

أتاه الجواب من كل القادة الفرعيين سلبيًا ، على الرغم من احاطتهم للحطام المنتشر ، إحاطة السوار بالمعصم ، فانعقد حاجباه فى شدة ، وهو يقول ، عبر جهاز الاتصال المحدود :

ـ مستحيل ! لايمكن أن يكونا قد ابتعدا .

ثم ألقى جهاز الاتصال ، والتقط مكبرًا صوتيًا ، صاح عبره فى صرامة :

ـ سيِّد (أدهم) .. نحن نعلم أنك هنا .. صحيح أنك قد نجحت فى إسقاط طائرتنا ، ولكن هذا يعنى أنك هنا .. سلم نفسك ، وأعدك أن نبقى على حياتك ، وحياة تلك المرأة معك .

تنحنح قائد (الجيب) ، قبل أن يقول فى حرج وتردُّد :

- كولونيل .. إنك تتحدث بالإسبانية .

زمجر (رودريجز) ، قائلاً :

- خصمنا يعرف الإسبانية أيها الغبى .

ثم التقط منظاره المقرب من حزامه ، مستطردًا :

- إلى جانب عدة لغات أخرى .

وضع المنظار على عينيه ، وراح يديره فى المنطقة كلها ، قبل أن يقول فى غضب :

- إنهما لم يبتعدا .

وخفض المنظار ، مضيفًا فى صرامة :

- إنهما هنا .

تطلع مرة أخرى إلى حطام الطائرة الروسية ، ثم أشار بيده ، قائلاً فى صرامة آمرة :

- افحصوا الحطام جيدًا .

انقضّ الرجال بخيولهم على حطام الطائرة ، فى حين تمتم قائد (الجيب) فى توتر :

- ألم يكن من الأسهل أن ننسف الحطام كله ، و ...

قاطعه (رودريجز) فى صرامة :

- لا تعلمنى كيف أعمل .

تراجع الرجل ، وانكمش فى مقعده ، متمتمًا :

- معذرة يا كولونيل .. معذرة .

فى نفس اللحظة ، التى نطق فيها عبارته ، كان الرجال يفحصون حطام الطائرة الروسية ، ويدورون حوله ، و ...

وفجأة ، انعقد حاجبا أحدهم فى شدة ، وسرى فى جسده انفعال مباغت ، انتقل بوسيلة ما إلى جواده ، الذى أطلق صهيلاً عصبيًا ، فجذب الرجل لجامه فى قوة ، وهو يهمس ، عبر جهاز الاتصال المحدود :

- كولونيل (رودريجز) .. لقد عثرت عليه .

سرى الانفعال فى جسد (رودريجز) ، عندما سمع العبارة ، فهتف فى صوت خافت ، عبر جهاز الاتصال :

- أأنت واثق يا رجل ؟! .

أجابه الرجل ، وهو يصوّب مدفعه الآلى ، نحو بقعة أسفل حطام الجزء الأوسط من الطائرة :

- تمام الثقة يا كولونيل .. لقد حفر حفرة أسفل الحطام ، ولكن سترته تبدو من جزء منها .

انعقد لسان (رودريجز) لحظة ، من فرط الانفعال ، قبل أن يهتف فى صرامة :

- وماذا تنتظر يا رجل ؟! أطلقوا عليه النار فوراً .

أجابه الرجل فى حزم :

- أوامرك يا كولونيل .

ثم أشار إلى أقرب ثلاثة رجال إليه ، ووضع سبابته على شفتيه ، ليحذرهم من التحدث عن الأمر ، ودس

جهاز الاتصال فى حزامه ، ثم أشار إلى تلك الحفرة أسفل الحطام ، فصوّب الآخرون فوهات مدافعهم الآلية نحوها ، قبل أن يخفض هو سبابته دفعة واحدة ، و ...

وانطلقت رصاصات المدافع الآلية الأربعة نحو الهدف ..

كلها .

* * *



٢ـ رجل واحد ..

« سنضرب ضربتنا الآن .. »

نطق دون (جوماتى) العبارة ، فى مزيج من الصرامة والحزم والتوتر ، وهو يضرب قبضته فى راحته الأخرى ، قبل أن يشدّ قامته ، متابعًا :

ـ فليستعد الرجال فورًا .

تنحنح محاميه (آل) فى توتر ، قبل أن يقول :

ـ دعنا لا نتسرّع على هذا النحو يا دون .

قال (جوماتى) فى حدة :

ـ لقد اتخذت قرارى .

أشار (آل) بيده ، محاولاً تهدئته ، وهو يقول :

ـ بالطبع يا دون .. بالطبع .. لا أحد يمكنه مراجعتك ، فيما تتخذ من قرارات .. كل ما أطلبه هو التروّى بضع دقائق .. هذا لن يصنع فارقًا .

صاح (جوماتى) ، وهو يلوّح بذراعه فى قوة :

ـ ومن أدرانى ؟! دونا (كارولينا) بدأت اللعب بأوراق مكشوفة ، وهذا يعنى أنها ستضرب ضربتها فى أية لحظة الآن .

قال (آل) فى حزم :

ـ دونا يمكن أن تربح معركتها ، دون أن تتحرّك من مكانها .

صاح به فى غضب :

ـ وكيف أيها العبقرى ؟!

انعقد حاجبا المحامى ، وهو يقول :

ـ بأن نتحرّك نحن بأسلوب خاطئ متسرّع ، فنضع رقابنا تحت نصلها ، بأبسط وأسرع وسيلة ممكنة .

حدّق فيه (جوماتى) مستنكرًا ، وهمّ بقول شىء ما ، بكل ما يعتمل فى نفسه من غضب ، إلا أن عقله لم

يلبث أن استوعب المعنى كله ، فبدا عليه مزيج من التردد والتوتر ، وهو يقول :

ـ ماذا تقترح يا (آل) ؟!

ثم استعاد عصبيته ، مع استطرادته :

ـ ولكن لا تنصحنى بالتراجع ، أو بتأجيل الهجوم .

ابتسم (آل) ، متمتمًا :

ـ لا يا (جومانى) .. لن أفعل .

ثم بدأ يتحرك فى المكان ، متابعًا فى اهتمام :

ـ كل ما أريده هو أن تدرس الهجوم ، وتنسقه جيدًا ، فعدونا ليست بسيطة .. إنها ذات عقلية تخطيطية جبارة ، وما دامت قد كشفت أوراقها أمامك على هذا النحو ، فهذا يعنى أنها ستتوقع أية محاولة منك للهجوم .

تضاعفت عصبية (جومانى) ، وهو يقول :

ـ ماذا نفعل إذن ؟! هل نستدرجها إلى هنا ، ثم ..

قاطعه فى صرامة :

ـ خطأ يا دون .. هذا نفس ما تتوقعه منك الآن ، فلو أنها تتذكر تاريخ العائلة ، وهذا ما أثق به تمامًا ، فستذكر جيدًا أن هذا أول دليل على خيانتك .

هتف (جومانى) فى غضب :

ـ خيانتى ؟!

استدرك (آل) فى سرعة :

ـ أقصد محاولتك للفوز بمقعد الزعامة .

قال (جومانى) فى حدة :

ـ هذه ليست خيانة .. إنها محاولة لتصحيح الأوضاع .. من الخطأ أن تقودنا امرأة .

بذل (آل) جهدًا خرافيًا هذه المرة ، للسيطرة على أعصابه ، وهو يقول :

ـ بالتأكيد يا دون .. بالتأكيد .

ثم التقط نفسًا عميقًا ، قبل أن يضيف فى حزم :

ـ المهم أن نرتب العملية جيدًا .

فرك (جوماتى) كفيه فى توتر زائد ، وهو يقول :

ـ ما اقتراحك ؟!

انعقد حاجبا (آل) ، وهو يفكر فى عمق ، قبل أن يشير بسبابته ، قائلاً فى حزم :

ـ دونا أكدت فى الاجتماع أنها تريد تلك المصرية المصابة ، بحالة صحية جيدة ، وهذا يعنى أن أى خبر عن مكان تلك المصرية ، سوف يستفزها ، ويدفعها إلى ....

قاطعه بغتة رنين الهاتف المحمول ، الخاص بدون (جوماتى) ، فتوقف عن الكلام ، فى حين انتزع هذا الأخير هاتفه ، وضغط زر الاتصال ، دون أن يلقى نظرة على الرقم ، وقال بكل عصبية الدنيا :

ـ دون (جوماتى) .

ولم يكد يسمع ما قاله محدثه ، حتى اتسعت عيناه عن آخرهما ، وسقطت فكه السفلى على نحو عجيب ، وغابت الدماء من وجهه دفعة واحدة ، حتى إن محاميه هتف فى ذعر :

ـ ماذا حدث يا دون ؟!

حدق فيه (جوماتى) لحظة فى ذهول ، قبل أن يهتف :

ـ دونا (كارولينا) .

هتف به (آل) ، وقد تضاعف ارتياعه :

ـ ماذا فعلت ؟!

خيل إليه أن الكلمات قد اختنقت فى حلق (جوماتى) بضع لحظات ، وهو يلوح بذراعيه ، قبل أن يقول ، بصوت متحشرج مذعور :

ـ رجالها اقتحموا مزرعتى فى (لوس أنجلوس) ، واستعادوا فتاة المخابرات المصرية .

هتف (آل) فى ارتياع :

ـ استعادتها ؟!

ترك (جومانى) هاتفه المحمول يسقط من يده ، وهو يقول :

ـ ليس هذا فحسب .. لقد دمروا المزرعة تمامًا ، وأشعلوا النيران فى قصرى هناك .

وسقط جسمه على أقرب مقعد إليه ، دون حتى أن يشعر بهذا ، وهو يقول فى انهيار :

ـ لقد بدأت حربها .. لقد سبقتنا إلى الهجوم .

حدّق (آل) فى وجهه بضع لحظات ، فى مزيج من الذعر والذهول والارتياع ، قبل أن ينتفض فى قوة ، هاتفًا :

ـ اسمع يا دون .. ألق كل ما قلته لك منذ دقائق خلف ظهرك .. الأمر لم يعد يحتمل التخطيط والمناورة .. مر رجالك بالهجوم فورًا ، دون أية ....

قاطعه صوت أنثوى ساخر هذه المرة ، يقول :

ـ أظنكم قد تأخّرتم كثيرًا على هذه الخطوة يا (آل) .

استدار المحامى بكل ذعر الدنيا ، ليحدّق فى نفس البقعة ، التى اتسعت عينا (جومانى) عن آخرهما ، وهو يحدّق فيها ..

البقعة التى وقف عندها خمسة من الرجال المسلحين ، يصوبون إليها فوهات مدافعهم الآلية القوية ، ووسطهم آخر شخص يتمنون رؤيته ، فى مثل هذا الموقف العصيب ..

دونا .

دونا (كارولينا) ..

شخصيًا ..

* * *

فى تناسق مدهش ، ومهارة صنعتها سنوات من التدريب الشاق ، أطلق الرجال الأربعة نيران مدافعهم الآلية ، نحو تلك الحفرة ، أسفل حطام الطائرة الروسية المحترقة ..



وقبل حتى أن يراه أحدهم ، أو يدرك وجوده ، وثب إلى متن أقرب جواد إليه ؛ ليستقر خلف راكبه ..

والعجيب أن دوى رصاصاتهم لم يُجفل جيادهم أو يصبها بالذعر ، كما يحدث للخيول فى المعتاد ، فى موقف كهذا ، وكأنما تم تدريبها أيضًا ، على مواجهة ظروف كهذه ..

كل ما فعلته الجياد ، هو أنها راحت تطلق صهيلاً عصبيًا ، وتضرب الأرض بقوائمها فى توتر ، و ...

وفجأة ، برز (أدهم) ..

برز من داخل حفرة أخرى، تبعد مترين فحسب ، من تلك التى ترك فيها سترته للتمويه والخداع ..

وقبل حتى أن يراه أحدهم ، أو يدرك وجوده ، وثب إلى متن أقرب جواد إليه ، ليستقر خلف راكبه ، هاتفًا :

ـ هدف خاطئ أيها الوغد ..

وبحركة مزدوجة سريعة ، هوى بقبضته اليسرى على مؤخرة عنق الرجل ، فى نفس اللحظة التى التقط فيها مدفعه ، وأدار فوهته نحو الثلاثة الآخرين ، الذين استداروا نحوه بدورهم ، وآخر يصرخ من بعيد :

ـ ها هو ذا .

ومع صرخته ، ضغط الرجال الثلاثة أزندة مدافعهم الآلية ..

وضغط (أدهم) زناد مدفعه ..

واخترقت رصاصات الثلاثة جسد زميلهم ، فى نفس اللحظة التى حصدتهم فيها رصاصات مدفع (أدهم) ..

ومن كل صوب ، انطلق الباقون بجيادهم نحوه ، و(رودريجز) يصرخ ، عبر مكبّر الصوت القوى :

ـ أوقفوه .. اقتلوه .. اسحقوه سحقًا ..

ولكن (أدهم) دفع جثة راكب الجواد ، وهو يقبض على اللجام بكل قوته ، هاتفًا :

ـ هيا أيها الأوغاد .. دعونا نختبر فروسيكم .

أدار لجام الجواد ، فى مهارة مدهشة ، جعلت الجواد يطلق صهيلاً عاليًا ، ثم يطيع راكبه ، وينطلق كالرياح ..

فى قلب الصحراء ..

الصحراء التى تمتد منبسطة إلى مدى البصر ..

فى كل الاتجاهات ..

وخلفه انطلق الجيش كله ..

أربعون فارسًا على جيادهم ، مع مدافعهم الآلية ..

وسيارتى (جيب) ..

ومن مكانه ، هتف (رودريجز) بالجندى ، الذى يقف خلف مدفع الميدان :

ـ هيا يا رجل .. أثبت مهارتك ، وانسفه بمدفعك .

هتف الرجل فى حماسة ، وهو يدير حلقة المدفع فى سرعة :

ـ كما تأمر يا كولونيل .

صوّب مدفعه ، بكل المهارة والخبرة ، اللتين اكتسبهما من طوال عمله بالجيش ، ثم جذب ذراع الإطلاق ..

وانطلقت القنبلة ..

وعلى مسافة ثلاثة أمتار من (أدهم) ، دوى الانفجار ..

انفجار قوى عنيف ، كاد يفقده وجواده توازنهما ، لولا أن سيطر هو على اللجام بساعديه القويين ، وفخذيه اللذين ضغطا بطن الجواد فى قوة ، قبل أن يهتف فى حزم :

- الأمر لن يكون هينًا أيها الجواد .. لابد أن تبذل جهدًا إضافيًا ، للإفلات من كل هذا .

والعجيب أن الجواد قد أطاعه ، كما لو أنه قد فهم قوله واستوعبه ، فزاد من سرعته وهو ينهب الأرض نهبًا ، ويثير خلفه سحابة من الرمال ، كان لها الفضل ، بعد الله (سبحانه وتعالى) ، فى عجز جيش الفرسان الذى يطارده ، عن إجادة تصويب رصاصاته ، التى راحت تنطلق عشوائيًا ..

بمنتهى القوة ..

ومنتهى السخاء ..

ثم دوت قنبلة أخرى ، على مسافة مترين فحسب ..

وفى هذه المرة ، كان الانفجار قويًا بحق ..

بل كان من العنف ، بحيث دفع (أدهم) والجواد بقوة هائلة ، اختلّ معها توازن الجواد ، فسقط أرضًا ، وهو يطلق صهيلاً قويًا ..

وعلى الرغم من سقوطه ، لم يفلت (أدهم) لجامه لحظة واحدة ..

لقد هبط على قدميه ، وسط سحابة الدخان الرهيبة ، التى صنعها الانفجار ، ثم جذب الجواد فى قوة ، ليدفعه إلى النهوض ، ووثب على متنه مرة أخرى ، هاتفًا :

- هيا يا صديقى .. دعنا نستغل سحابة الدخان هذه ، قبل أن نفقد عامل المفاجأة وتأثيره .

جذب لجام الجواد ، وأداره فى مهارة ، ثم انطلق به ، عبر سحابة الدخان الكثيفة ..

فى الاتجاه المضاد ..

انطلق نحو مهاجميه ، وليس بعيدًا عنهم ..

وكانت مفاجأة مذهلة للرجال ..

انقضوا على سحابة الدخان الكثيفة ، بكل تحفُّز الدنيا ، لاقتناص فريستهم المنفردة ، ففوجئوا بالفريسة تنقضّ عليهم كالوحش الكاسر ..

وعلى الرغم من أن (أدهم) لايميل للقتل وإراقة الدماء ، إلا للضرورة القصوى ، إلا أنه لم يتردد لحظة واحدة ، فى هذا الموقف ، وهو يضغط زناد مدفعه الآلى ، ويفتح النار على خصومه كلهم ..

وبلا رحمة ..

فقد كان من المستحيل ، فى موقف كهذا ، أن يتخذ أى رد فعل آخر ..

ولقد انطلقت رصاصاته تحصد الرجال ، الذين أخذتهم المفاجأة ، قبل أن يندفع بجواده وسطهم ، مثيرًا أقصى قدر ممكن ، من الارتباك ، والاضطراب ، والتوتر ..

ومن موقعه ، وعبر منظاره المقرِّب ، شاهد (رودريجز) ما حدث ..

شاهد رجاله يتساقطون ، بعضهم برصاصات (أدهم) ، والبعض الآخر بضرباته القوية ، بعد أن أصبح وسطهم تمامًا ، على نحو يتعذَّر معه إطلاق النار ، بأى حال من الأحوال ..

وبكل الغضب والمقت ، غمغم (رودريجز) :

ـ إنه يستحق سمعته عن جدارة .

ثم التقط جهاز الاتصال اللاسلكى المحدود ، وقال عبره فى صرامة :

ـ فليتراجع الرجال كلهم دفعة واحدة ، ولتنقضّ السيارتان من الجانبين .

هتف به سائق الجيب فى حماسة :

ـ ألا نطلق عليه قنبلة أخرى يا كولونيل .

قال (رودريجز) فى غلظة :

ـ وسط رجالنا مباشرة ؟! يا لك من عبقرى !

فى الأحوال العادية ، كان سيواصل الصراخ فيه لخمس دقائق كاملة على الأقل ، لأنه تدخل فى الأمر للمرة الثانية ..

ولكنه ، فى ظل هذا الموقف ، اكتفى بالعبارة السابقة فحسب ..

هذا لأنه كان منشغلاً بكل حواسه ، وعبر منظاره المقرّب ، فى مراقبة رجاله ، الذين نفذوا خطته على الفور ، فانطلقوا مبتعدين عن (أدهم) ، فى كل الاتجاهات ، فى لحظة واحدة بالضبط ، فى نفس الوقت الذى انحرفت فيه سيارتا الجيب ؛ لتنقضا عليه من الجانبين ، و ...

وكان هذا يغيّر تكنيك المعركة تمامًا ..

وبعنف ..

* * *

« كل الحسابات تؤكد أن هذا مستحيل ! »

نطق المساعد الأول لمدير المخابرات العامة المصرية العبارة ، وهو يراجع كل التقارير ، الواردة من الولايات المتحدة الأمريكية و (المكسيك) ، قبل أن يتابع :

ـ رجالنا فى الولايات المتحدة يؤكدون أنه ليست لديهم الإمكانيات اللازمة ، للقتال داخل حدود (المكسيك) ، وعدد رجالنا هناك ليس كافيًا ، بأى حال من الأحوال ، كما أن الحكومة المكسيكية ترفض حتى الاعتراف بالأمر ، وتؤكد أن وسائل دفاعها الجوى الرسمية ، لم ترصد سقوط أية طائرات ، ثم إنهم يقولون : إن تلك المنطقة ، التى حددها الخبراء لسقوط الطائرة الروسية ، التى كانت تقلّ سيادة العميد (أدهم) ، منطقة مهجورة ومقفرة تمامًا ، ولكنها تخضع لسيطرة جنرال سابق منشق ، يدعى (ألنزو) ، وأنها غير مستعدة للدخول فى معركة معه ، من أجل أمر ليس لديها ما يؤكد حدوثه .

تساءل أحد رجال المخابرات فى توتر :

ـ ولماذا لايقومون بعملية استطلاع جوى للتيقن ؟!

أجابه المساعد :

ـ من الواضح أنهم لايرغبون فى الاحتكاك بالجنرال (ألنزو) هذا ، بأى حال من الأحوال .

قال آخر فى حيرة :

ـ أهو قوى إلى هذا الحد ؟!

هزّ المساعد رأسه ، مجيبًا :

ـ لو أننا نظرنا إلى الأمر ، من الناحية الحسابية المحضة ، فهو لايمثل أية قوة عسكرية تذكر ، ولكن المشكلة تكمن فى أنه شخصية محبوبة جدًا فى الأوساط العسكرية المكسيكية ، وبعضهم يعتبره بمثابة الأستاذ ، أو المثل الأعلى ، والسلطات المكسيكية تخشى أن

تصطدم به ، فتشعل بهذا نار الفتنة ، فى صفوف قواتها العسكرية ، ويحدث من جراء هذا ما لاتحمد عقباه .

هتف أحد رجال المخابرات ، فى غضب مستنكر :

ـ هل يعنى هذا أن نتخلّى عن سيادة العميد (أدهم) ؟!

انعقد حاجبا المدير ، دون أن ينبس ببنت شفة ، فى حين قال المساعد فى سرعة وحزم :

ـ مطلقًا .. لقد درسنا كل الاحتمالات ، حتى احتمال اختراق المجال الجوى المكسيكى ، بواحدة من طائراتنا ، عبر المسار نفسه ، الذى اتخذته الطائرة الروسية فى سقوطها ، ماداموا يؤكدون أنه لم يتم رصدها ، بأية وسيلة من وسائل الدفاع الجوى ، ولكن المشكلة تكمن فى أن أى إجراء نتخذه ، يحتاج إلى خمس عشرة ساعة على الأقل ، للقيام به ، ولو افترضنا أن سيادة

العميد (أدهم) قد نجا من حادث الطائرة ، فالخبراء يؤكدون أن مسار سقوطها لم يكن عشوائيًا ، ويعتقدون أنها كانت تتجه به إلى منطقة نفوذ الجنرال (ألنزو) بالتحديد ، وهذا يعنى أنه ـ بفرض نجاته ـ يواجه جيش (ألنزو) هذا بأكمله الآن ، فى قلب الصحراء المكسيكية .

ثم التفت إلى الخريطة الكبيرة على الجدار ، متابعًا :

ـ والمنطقة كما ترون ، منبسطة تمامًا ، ولا يوجد بها مكان واحد ، للفرار أو الاختباء .

هتف رجل مخابرات :

ـ وما الذى يعنيه كل هذا ؟!

اعتدل المدير فى مقعده ، عند هذه النقطة ، وأجاب فى حزم :

ـ يعنى أن (ن ـ ١) يواجه أكبر خطر فى حياته ،

وأسوأ موقف واجهه على الإطلاق ، وعامل الزمن والمسافة يمنعنا من التدخل فى الوقت المناسب ، لمساندته أو إنقاذه .. هذا بفرض أنه ما زال على قيد الحياة بالفعل .. هذا بالضبط ما يعنيه الموقف ، فهل لدى أحدكم أى اقتراح محدود ؟!

تبادل الرجال نظرة صامتة متوترة ، قبل أن يقول أحدهم بغتة فى حزم :

ـ أنا لدى اقتراح ، بشأن الإمكانيات المتاحة لطاقمنا فى الولايات المتحدة الأمريكية .

سأله المدير فى اهتمام ، والعيون كلها تلتفت إليه :

ـ وما اقتراحك ؟!

تنحنح الرجل ، واعتدل فى مقعده ، وشدّ قامته فى اعتداد ، وهو يقول بمنتهى الحزم والعزم :

ـ دونا (كارولينا) .

ودون أن يضيف حرفًا آخر ، أو حتى يشرح تفاصيل اقتراحه ، بدا الأمر للجميع منطقيًا ..

للغاية ..

* * *

لم يكد رجال (رودريجز) يتلقون أوامره ، عبر أجهزة الاتصال المحدودة ، التى لايمتلك (أدهم) مثلها ، حتى تفرّقوا بأسلوب تكنيكى مدروس ، وانطلقوا مبتعدين فى كل الاتجاهات ، فى نفس اللحظة التى انقضت فيها سيارتا (الجيب) على (أدهم) وجواده ، من الجانبين ..

وعلى الرغم من عامل المفاجأة ، ومن الرصاصات التى راح ركاب سيارتى (الجيب) يمطرونه بها بلا هوادة ، انطلق عقل (أدهم) يدرس الموقف كله ، فى سرعة يندر أن يمتلكها عقل بشرىّ عادىّ ..

وفى جزء من الثانية ، اتخذ قراره ..

وقبل أن تكتمل الثانية ، كان يضعه موضع التنفيذ ..

وبكل الحزم والعزم والقوة ، جذب عنان جواده ، وأطلق صرخة قتالية عالية ، استعاد معها ذكريات فترة عمله ، فى القوات الخاصة المصرية ، وهو ينطلق ، نحو (الجيب) اليمنى مباشرة ..

وعلى الرغم من كونه مجرّد رجل واحد ، فى مواجهة جيش كامل ، إلا أن إقدامه الباسل هذا أثار الرجفة ، فى قلوب خصومه ، وجعلهم يطلقون الرصاصات نحوه فى توتر بلا حدود ..

وشعر (أدهم) بالرصاصات تتطاير حول أذنيه ، وشقّ عمود من النار كتفه اليسرى ، وأدمت رصاصة طائشة عنقه ، ونفذت ثالثة من عضلة ساعده الأيمن ..

ولكنه لم يتوقّف ..

لقد واصل الانطلاق بجواده نحو الجيب ، التى هتف قائدها ، وهو ينحرف بها فى ارتياع :

- أى رجل هذا ؟!

ومن بعيد ، انعقد حاجبا (رودريجز) فى شدة ، وهو يغمغم :

- مستحيل ! قراءة ملفه لا تساوى شيئًا ، أمام رؤيته يعمل مباشرة .. إنه معجزة .

ثم انتفض صوته ، من فرط الانفعال ، وهو يضيف فى غضب :

- ولكنه لن ينتصر على (رودريجز) .

قالها ، ثم التقط جهاز الاتصال اللاسلكى ، ليهتف بكل توتره وصرامته :

- الجواد .. صوبوا رصاصاتكم إلى الجواد .

كانت المسافة ، التى تفصل (أدهم) عن (الجيب)

تنكمش بسرعة ، عندما صوّب ركابها فوهات مدافعهم الآلية إلى جواده ..

وأطلقوا النار ..

وانطلق صهيل الجواد عاليًا ، عندما اخترقت رصاصاتهم جسده ، وارتفعت قائمتاه الأماميتان تضربان الهواء فى عنف ، قبل أن يسقط جثة هامدة ..

وعلى مسافة عشرة أمتار فحسب ، من الجيب اليمنى ، بركابها الأربعة ، المسلحين بمدافع آلية قوية ، سقط (أدهم) على رمال صحراء (المكسيك) ..

تلك الرمال ، التى بدت فى تلك اللحظة ، ملتهبة ..

وقاتلة ..

تمامًا .

* * *



٢ ـ دونا (كارولينا) ..

فى هدوء عجيب ، وبابتسامة ساخرة متشفية ، أشعلت دونا (كارولينا) سيجارتها ، ونفثت دخانها فى سماء حجرة مكتب دون (جومانى) الأنيقة ، قبل أن تتطلع إلى هذا الأخير ، قائلة :

ـ عجبًا ! لماذا امتقع وجهك الوسيم إلى هذا الحد يا عزيزى (جومانى) ؟! هل تزعجك رؤيتى إلى هذا الحد ؟!

حاول (جومانى) أن يقول شيئًا ..

أى شىء ..

ولكن الرعب الشديد ، الذى ملأ نفسه ، مع فوهات المدافع الآلية ، المصوبة إليه ، وتلك الغصة فى حلقه ، جعلاه يتمتم ، فى صوت متحشرج مختنق :

ـ دونا .. إننى ..

صمتت هى تمامًا ، لتمنحه الفرصة كاملة للحديث ، إلا أنه لم يستطع إضافة حرف واحد ، فتنحنح (آل)، قائلاً :

ـ دونا .. تصرفك هذا يخالف كل الـ ...

قاطعته دونا (كارولينا) فى هدوء حازم :

ـ لا يا (آل) .. ليس هذا مكان أو وقت المرافعات القانونية .. لقد انحسم الأمر .

هتف المحامى معترضًا :

ـ ولكن يا دونا ..

قاطعته مرة أخرى ، فى صرامة شديدة :

ـ مساعدى (كارلو) اقتحم مزرعة (جومانى) ، فى (لوس أنجلوس) ، وعثر فيها على (جيهان) ، وشاهد بنفسه كل الاستعدادات الطبية ، التى أمر (جومانى) بنفسه بإعدادها ، لضمان بقائها على قيد الحياة ، حتى تنتفى الحاجة إليها .. وكل رجالكما اعترفوا

بهذا ؛ لشراء حياتهم ، والتفكير عما ارتكبه زعيمهم ، فى حق العائلة وقوانينها .

هتف (آل) فى عصبية :

ـ هذا ليس دليلاً على أن دون (جومانى) قد فعلها .. ربما هو أحد رجاله ، الذى ....

قاطعته للمرة الثالثة ، فى صرامة ، أكثر :

ـ أما بالنسبة لرجالكما هنا ، فلا تشغلا نفسيكما بهم كثيرًا ، فمن لم يذبحه رجالى ، استسلم لنا تمامًا ، والكل فوجىء بالجيش الذى حاصرت به قصرك يا عزيزى (جومانى) ، والذى انقضّ من كل صوب .

كاد (جومانى) يبكى ، وهو يتمتم :

ـ دونا .. أرجوك .

أما (آل) ، فارتجف صوته فى شدة ، وهو يقول :

ـ فليكن يا دونا .. لقد أثبت عبقريتك ، فى التوصُّل إلى كل الحقائق والتفاصيل ، ولكن هناك قوانين

عائلية ، لا بد من الالتزام بها ، وفقًا للقاعدة المعمول بها لدينا .. لا أمور شخصية .. العمل ومصلحته فقط(*) .

ابتسمت ، وهى تنفث دخان سيجارتها مرة أخرى ، قائلة :

ـ عبقريتى ؟! كنت أتمنى أن يكون ما توصلت إليه بسبب عبقريتى بالفعل .. على الأقل حتى أزهو بانتصارى على العزيز (جومانى) ، أمام مجلس العائلات ، ولكن الواقع أن المعلومات كلها قد وصلتنى ، عبر زعيم إحدى منظمات الجاسوسية الخاصة ، كعربون للصداقة الجديدة بيننا .

اتسعت عينا (جومانى) ، وهو يهتف :

ـ زعيم ماذا ؟!

ثم هبَّ من مقعده ، صائحًا فى انفعال :

ـ لعلك لا تقصدين مستر (X) .

(*) هذه القاعدة تلتزم بها عائلات (المافيا) منذ نشأتها ، فمصلحة العائلة والعمل فوق كل اعتبار ، دون أية اعتبارات شخصية أو عائلية .

أومأت برأسها إيجابًا فى هدوء ، وقالت :

- بالضبط .. من الواضح أنك تعرفه جيدًا يا عزيزى (جومانى) .

صاح فى غضب هادر :

- ذلك الوغد الحقير يلعب أقذر لعبة ، فى حياته كلها .. إنه يضرب عصفورين بحجر واحد .

قالت فى سخرية :

- حقًا ؟!

صاح بكل انفعاله :

- نعم .. حقًا يا دونا .. ذلك الوغد هو صاحب اقتراح السعى للتخلص منك ، وأنا كنت مجردُ أداة فى يده ، ولقد وعد بمعاونتى على كل ما فعلت ، مقابل صداقتى ، عندما أصبح الأب الروحى للعائلة كلها .

هزّت رأسها ، ونفثت دخان سيجارتها فى بطء ، قائلة :

- يا لها من قصة درامية رائعة ! ولكن ألا تبدو لك أشبه بأفلام الثلاثينات يا عزيزى (جومانى) ؟!

صاح فى حدة :

- إنها الحقيقة يا دونا .. لقد تمرّدت عَليه ، ورفضت طاعة أوامره ، فى آخر اتصال بيننا ، لذا فقد قرّر معاقبتى على هذا ، وكسب صداقتك فى الوقت ذاته ، بلعبة مزدوجة حقيرة .

قالت فى سخرية :

- عجبًا ! كل التسجيلات ، والصور ، والوثائق التى أرسلها لى مستر (X) ، لاتوحى بشىء من هذا على الإطلاق .

صرخ :

- وكيف حصل عليها فى رأيك ؟!

هزّت كتفيها ، قائلة :

- إنه زعيم منظمة للجاسوسية .

صرخ ، فى انفعال بلا حدود :

- لا يادونا .. لا .. إنه يخدعك .. يخدعك وينتقم منى فى آن واحد .

التقى حاجباها ، وهى تلقى سيجارتها أرضًا ، وتسحقها بقدمها ، قبل أن تقول فى حزم :

ـ ما تقوله يستحق التفكير يا عزيزى (جوماتى) .

هتف المحامى فى لهفة :

ـ بالتأكيد يا دونا .. بالتأكيد .. الأمر يستحق التفكير .

أشارت بسبابتها ، قائلة :

ـ أعدكم أن أدرس الأمر بمنتهى الدقة .

ثم تألقت عيناها بضحكة ساخرة ، وهى تضيف :

ـ بعد عودتى من جنازتيكما مباشرة .

قالتها ، ثم استدارت منصرفة ، وملوّحة بيدها ، متابعة .

ـ وداعًا يا (جوماتى) .. وداعًا يا (آل) .

شهق (جوماتى) برعب هائل ، وهو يتراجع بعينين متسعتين ، تحدقان فى فوهات المدافع الخمسة التى ارتفعت فى وجهيهما ، فى حين صرخ المحامى :

ـ لا يا دونا .. لا يمكنك أن تفعلى هذا .. هناك قوانين وقواعد عائلية ، و ...

ابتسمت فى سخرية ، وهى تبتعد عن المكان فى هدوء ، ودوى المدافع الآلية ، الممتزج بصرخات الرجلين يأتى من خلفها ، وغمغمت :

ـ خطأ يا (آل) .. لقد فعلته بالفعل .

لم تكد تتم عبارتها ، حتى ارتفع رنين هاتفها المحمول ، فالتقطته فى حركة آلية ، قائلة فى صرامة :

ـ دونا (كارولينا) .. من المتحدث ؟!

أتاها صوت قوى ، يقول بإنجليزية سليمة تمامًا :

ـ إننى أتحدث إليك من (مصر) يا دونا .. أنا أحد أصدقاء السيد (أدهم صبرى) .

ومع ذكر اسم (أدهم) ، تحفزت كل ذرة فى كيانها ، وراحت تستمع إلى محدثها فى انتباه واهتمام ..

وكان ما يقوله مهمًا وخطيرًا ..

بالفعل ..

* * *

« ولكن لماذا ؟! »

هتفت (لورا) بسؤالها فى دهشة بالغة ، وهى تجلس أمام شاشة جهاز الاتصال الخاص ، الذى حملته معها ، إلى قلعة (ألنزو) ، فتراجع مستر (X) على الشاشة ، بوجهه الغارق فى الظلام ، وهو يجيب ، فى لهجة بدت صارمة قاسية ، أكثر مما ينبغى :

ـ دون (جوماتى) حاول الخروج من تحت سيطرتنا ، وكان من الطبيعى أن أسعى لتصفيته ، وكانت فرصة مناسبة ، فى الوقت ذاته ، للفوز بصداقة دونا (كارولينا) .

انعقد حاجباها ، وهى تقول فى توتر :

ـ ولكنها حركة غادرة للغاية .

سألها فى برود قاس :

ـ ماذا كنت تفضلين ؟! أن يفسد عملنا كله بحماقته .

قالت فى حدة :

ـ مازالت تبدو لى حركة غادرة .

ونفثت دخان سيجارتها ، قبل أن تستطرد فى عصبية زائدة :

ـ ثم إن هذا يبدو أسلوبًا تتخذه ، فى كل أعمالك .. (سونيا جراهام) عارضتك ، فنسفت سيارتها فى (باريس) ، و(جوماتى) تمرّد عليك ، فسحقته سحقًا ؛ لتحقق هدفك بوسيلة أخرى .

قال بمنتهى القسوة :

ـ بالضبط .. هذا أسلوبى .

أطفأت سيجارتها ، قائلة فى غضب :

ـ إنه لا يروق لى .

أجابها فى خشونة :

ـ هذا لن يمنع تطبيقه على الجميع ، حتى أنت نفسك ، لو حاولت تجاوز الحدود .

أشعلت سيجارة أخرى ، فى عصبية أكثر ، وهى تهتف :

ـ إننى أرفض أسلوب التهديد هذا .

قال فى خشونة أكثر :

ـ هذا شأنك .

همّت بقول شيء آخر ، ولكنه زمجر فى قسوة ، قائلاً :

ـ ما الذى بلغته مهمتك ، حتى هذه اللحظة ؟!

أغاظها أن ينتقل بالحوار إلى نقطة أخرى ، على هذا النحو ، حتى كادت تقضم طرف سيجارتها ، وهى تقول :

ـ إنهم لم يظفروا به بعد ، على الرغم من خسارتهم لأكثر من عشرين رجلاً .

بدا صوته غاضبًا ، وهو يقول فى حدة :

ـ لماذا أرسلتك إذن ؟! الهدف من ذهابك شخصيًا ، هو منعهم من التراجع أمام خسائرهم .. استخدمى سحرك وفتنتك ، واخلبى لب ذلك المأفون المكسيكى ، وأوهميه بأنه لن يظفر بك ، إلا إذا ظفر بـ (أدهم صبرى) .

صاحت فى غضب :

ـ تتحدث كما لو أننى عاهـ ...

قاطعها فى صرامة شديدة :

ـ نفذى ما أمرتك به يا (لورا) .

احتقن وجهها ، وهى تنفث دخان سيجارتها فى عصبية ، قبل أن تقول :

ـ سأبذل قصارى جهدى أيها الزعيم .

ثم أضافت فى حدة :

ـ ولكن ذلك المصرى أقوى مما كنت أتصور ، وأقوى مما كانوا يتصورون بكثير ، و(ألتزو) عصبى للغاية ؛ لأنه يفقد قواته مع كل دقيقة تمضى ، فى صراعه مع رجل واحد ، وهذا يجرح كرامته وهيبته بشدة .

قال فى غلظة :

ـ ضمدى جراحه ، وسينسى كل هذا .

انعقد حاجباها ، وهى تقول فى عصبية :

ـ سأحاول .

صمت لحظة ، وكأنما ينتظر منهـا إنهاء الاتصـال ، ولكنها لم تكد تمدّ يدها إلى زر الإنهاء ، حتى اعتـدل بغتة ، متسائلاً :

ـ مهلاً .. أتقولين إنهم يطاردونه وحده ؟!

أجابته فى توتر :

ـ هذا ما أقوله منذ البداية .

سأل فى اهتمام :

ـ أين ذهبت المرأة إذن ؟!

ارتفع حاجباها فى دهشة ، وهى تتساءل :

ـ أية امرأة ؟!

قال فى سرعة :

ـ الطيّار المكسيكى رصد رجلاً وامرأة ، قبل أن يسقط (أدهم) ، وهذا يعنى أن واحدة من أفراد طاقم الطائرة الروسية قد نجت من الحادث أيضًا .

حاولت أن تستوعب سر اهتمامه البالغ بهذا الأمر ، قبل أن تهزّ كتفيها ، قائلة فى حذر :

ـ وماذا فى هذا ؟!

مال بجسده إلى الأمام ، دون أن يخرج وجهه من دائرة الضوء ، وهو يقول فى حزم :

ـ نقطة الضعف يا عزيزتى (لـورا) .. نقطة الضعف الكبرى ، فى شخصية (أدهم صبرى) .. اهتمامه الزائد بحياة الآخرين .

نفثت دخان سيجارتها ، فى بطء وعمق هذه المرة ، قبل أن تسأله ، وقد تضاعف توترها وحذرها :

ـ ما المفترض أن أفهمه من هذا ؟!

اعتدل فى مقعده ، قائلاً فى حزم :

ـ (أدهم صبرى) أخفى تلك الروسية فى مكان ما ، عند حطام الطائرة .

طلّ تساؤل حائر من عينيها ، فتابع فى صرامة :

- وفى تلك الروسية ، تكمن وسيلة اقتناص (أدهم) ، والقضاء عليه تمامًا .

وعندئذ .. عندئذ فقط ، فهمت (لورا) مايعنيه ..

فهمته جيدًا ..

* * *

بمنتهى العنف ، وبعد سيل الرصاصات الذى أصابه ، سقط جواد (أدهم) أرضًا ..

وسقط معه (أدهم) ..

وعلى بعد عشرة أمتار فحسب من (الجيب) ، التى تنطلق نحوه بأقصى سرعتها ..

ومع سقوطه ، هتف قائد (الجيب) فى حماسة :

- ظفرنا به .

لم يكن هتافه قد اكتمل حتى ، عندما وثب (أدهم) واقفًا على قدميه ، وانحرف جانبًا ، ليتفادى رصاصات

ركاب (الجيب) الأربعة ، قبل أن يندفع نحوها كالصاروخ ، وهو يطلق رصاصاته على ركابها ، فى غزارة مخيفة ..

وحصدت رصاصاته اثنين من الرجال الأربعة ، قبل أن يقفز هو قفزة عملاقة ، صرخ لها قائد (الجيب) رعبًا ، عندما هبطت به داخلها تمامًا ..

وعلى الرغم من إصابة ساعده ، والرصاصة التى تستقر فى كتفه ، والدماء التى تنزف من عنقه ، لتغمر ياقة قميصه ، هوى بكعب مدفعه ، الذى فرغ من الذخيرة ، على رأس الرجل الثالث ، قبل أن ينتزعه من مكانه ، ويلقى به خارج السيارة ..

ومع ارتطام الرجل بالرمال ، سحب قائد (الجيب) مسدسه ، صائحًا :

- لا .. لا تحاول الـ ....

قبل أن تكتمل صيحته ، قبضت أصابع (أدهم) الفولاذية على معصمه ، ولوته لتجبره على إفلات المسدس ،



وسيطر على السيارة ، وأدارها بحركة ماهرة بارعة ، أثارت عاصفة من الرمال حولها ، قبل أن ينطلق مبتعداً ..

فى نفس الوقت الذى انتزعته فيه يده الأخرى من مقعد القيادة ، ودفعته قدم (أدهم) خارج الجيب ، وهو يقول :

ـ هل تعتبر هذا مجرد محاولة ؟!

سقط الرجل أرضًا ، وتدحرج جسده على الرمال فى عنف ، فى نفس اللحظة التى احتلّ فيها (أدهم) مقعد القيادة ، وسيطر على السيارة ، وأدارها بحركة ماهرة بارعة ، أثارت عاصفة من الرمال حولها ، قبل أن ينطلق مبتعدًا .

ومن موقعه ، وعبر منظاره المقرّب ، شاهد (رودريجز) ماحدث ، فاتسعت عيناه عن آخرهما ، وهو يهتف فى غيظ :

ـ مستحيل ! مستحيل !

قال قائد سيارته فى توتر :

ـ لقد خسرنا الكثير ياكولونيل .. هذا المصرى شيطان بحق .

صاح به (رودريجز) فى غضب :

ـ اصمت .

حاول السائق أن يصمت ، إلا أن ذلك الانفعال الجارف فى أعماقه ، جعله يتابع فى عصبية :

ـ أنا لم أر شيئاً كهذا قط .. ولم يكن بإمكانى حتى تصوّر حدوثه .. إنه مجرّد رجل واحد ، ونحن نطارده بنصف جيشنا ، وعلى الرغم من هذا ..

صرخ (رودريجز) ، يقاطعه فى ثورة :

ـ قلت : اصمت .

ثم سحب مسدسه ، وألصق فوهته بصدغ السائق ، مستطرداً :

ـ أو أنسف رأسك ؛ لأخرسك إلى الأبد .

جفّ حلق الرجل ، وهو يتمتم :

ـ بالتأكيد يا كولونيل .. بالتأكيد .

انعقد حاجبا (رودريجز) فى شدة ، حتى بدا لحظة وكأنه سينسف رأس الرجل بالفعل ، إلا أنه لم يلبث أن أعاد مسدسه إلى غمده ، وهو يقول فى صرامة :

ـ ذلك المصرى محظوظ ، يجيد التحرك بسرعة فحسب .

ثم استدار إلى الجندى المسئول عن مدفع الميدان ، قائلاً فى حدّة :

ـ هل خرج من نطاق تصويبك ؟!

ربّت الرجل على مدفعه ، وهو يقول فى حزم :

ـ ليس بعد .

أشار له بيده ، هاتفاً :

ـ ماذا تنتظر إذن ؟!

أجابه الرجل بنفس الحزم :

ـ أوامرك يا جنرال .

صاح (رودريجز) فى حنق :

ـ اضرب يا رجل .. اضرب ..

كانت الجيب الأخرى قد انطلقت تطارد (أدهم) ، عندما بدأ مسئول المدفع عملية التصويب ، و ..

وأطلق مدفعه ..

وعلى مسافة ثلاثة أمتار ، إلى يسار سيارة (أدهم) دوى الانفجار ..

وانحرف (أدهم) بالسيارة إلى اليمين ، ثم راح ينطلق بها فى خط متعرّج ، وبأقصى سرعة يسمح بها السير على الرمال ..

وأطلق الرجل قذيفة ثانية ..

وثالثة ..

ولكن أسلوب قيادة (أدهم) المدهش ، جعل القذائف كلها تخطئ الهدف ، وتنفجر حول السيارة ، على مسافات تتراوح بين الأمتار الثلاثة والخمسة ، فهتف قائد (الجيب) الثانية فى حدة ، عبر جهاز الاتصال :

ـ كفى .. إنكم تمنعوننا من مطاردته ؛ لأننا نخشى أن تصيبنا قذائفكم الطائشة هذه .

انعقد حاجبا (رودريجز) أكثر وأكثر ، عندما سمع العبارة ، وسرت فى جسده موجة حادة من التوتر ، و ...

وفجأة ، ارتفع رنين هاتفه الخاص ، فانتفض جسده بحركة عنيفة ، قبل أن يلتقطه فى حدة ، قائلاً فى خشونة :

ـ من هناك ؟!

أدهشه أن سمع صوت (لورا) الأنثوى الناعم وهى تقول :

ـ إنه أنا يا (كولونيل) .. (لورا) .. (لورا كيلرمان) .

شعر بالحنق ، لاتصالها المفاجئ ، فى مثل هذه الظروف ، فقال فى غلظة :

ـ سيّدة (لورا) .. أعتذر عن عدم استطاعتى انتظار وصولك مع الجنرال (ألنزو) ، ولكن الموقف الآن لا يسمح بـ ....

قاطعته فى صرامة :

ـ إنها ليست محادثة غرامية يا جنرال .. إننى أحمل لك رسالة من مستر (X) .

لم يكد (رودريجز) يسمع اسم مستر (X) ، حتى عاد حاجباه يلتقيان بشدة ، وهو يقول فى صرامة :

ـ ماذا لديك ؟!

ازداد انعقاد حاجبيه ، وهى تنقل إليه ما أخبرها به مستر (X) وسرت فى جسده موجة من الغضب والسخط ؛ لأنه لم ينتبه إلى هذا الأمر ..

الطيّار أخبرهم أنه رصد رجلاً وامرأة ..

وها هو ذا الرجل ..

فأين المرأة ؟!

أين ؟!

أين ؟!

رفع بصره يتطلّع إلى حطام الطائرة الروسية ، وهو يقول فى خشونة :

ـ أشكرك يا سنيورا (لورا) .. لقد استوعبت الموقف .

أنهى الاتصال فى غلظة وعدم لياقة ، وألقى هاتفه فى جيبه ، وهو يغمغم ، بكل عصبية وتوتر الدنيا :

ـ إنها هنا .

تنحنح مسئول مدفع الميدان ، وهو يسأله :

ـ هل نتوقّف يا كولونيل ، أم نطلق قذيفة أخرى ؟!

تابع (رودريجز) ، وكأنه لم يسمعه :

ـ لقد أخفاها جيداً ؛ ليحميها منا .

سأله الرجل مرة أخرى :

ـ قذيفة أخرى يا كولونيل ؟!

واصل (رودريجز) :

ـ إنها نقطة ضعفه الوحيدة .

هتف الرجل :

ـ كولونيل .

استدار إليه فى حدة ، صائحًا :

ـ ماذا تريد ؟!

تراجع الرجل فى خوف ، مغمغمًا :

ـ سألتك هل أتوقف ، أم أطلق قذيفة أخرى ؟!

سأله فى صرامة :

ـ كم تبقى لديك من ذخائر ؟!

رفع الرجل سبابته ، مجيبًا :

ـ قذيفة واحدة .

هتف به :

ـ أطلقها إذن .

بدأ الرجل يعدّ مدفعه للإطلاق ، فى حين هتف (رودريجز) بقائد (الجيب) :

ـ انطلق بنا إلى تلك الحطام ، حيث برز المصرى .

انطلق الرجل بـ (الجيب) ، و ...

ومن خلفهما دوى المدفع ..

وانطلقت القذيفة ..

ثم دوى الانفجار ..

وبانفعال جارف ، صاح سائق (الجيب) :

ـ يا إلهى .. انظر يا كولونيل .

أدار (رودريجز) عينيه فى حدة ، إلى حيث يشير الرجل ..

ثم انعقد حاجباه عن آخرهما ..

فهناك ، وعلى مدى البصر ، كانت قذيفة المدفع

الأخيرة قد انفجرت ، على مسافة متر واحد من سيارة (أدهم) ، التى أصابتها موجة تضاغط عنيفة ، فى جانبها الأيسر ، و ...

وانقلبت السيارة براكبها ، فى قلب الصحراء المكسيكية ..

بمنتهى العنف .





٤ـ نقطة الضعف ..

ارتجف جسد المضيفة الروسية (هوليا) من قمة رأسها ، وحتى أخمص قدميها ، وهى تنكمش داخل تلك الحفرة ، أسفل حطام الجزء الأوسط من الطائرة ، ودوى الرصاصات والانفجارات يصك أذنيها ، ويبعث فى جسدها رعبًا لاحدود له ، متصوِّرة أن انفجارًا ما سينسفها مع حطام الطائرة ، فى أيةَ لحظة ..

وفى ذهنها ، راحت تستعيد آخر كلمات (أدهم) لها ..

« لاتغادرى مكمنك هذا أبدًا ، مهما سمعت أو رأيت .. لا تغادريه إلا إذا أتيت أنا لاصطحابك .. »

أطاعته دون مناقشة ، مع لهجته الصارمة الحازمة الآمرة ، وانكمشت داخل الحفرة الضيقة ، وهو يصنع حفرة أخرى ، على مسافة متر واحد منها ..

لم تدر فيم أو كيف يفكر ، إلا إنه بدا لها مجنونًا ، وهو يصنع كل هذا ، فى مواجهة جيش كامل ، كذلك الذى رأته يتجه نحوهما من بعيد ..

صحيح أنها شاهدت كيف يعمل ..

وأدركت كم يمتلك من قدرات ومهارات ..

ولكنه فى النهاية رجل واحد ..

مجرد رجل واحد ..

فى مواجهة جيش كامل ..

ويا لها من معادلة مخيفة !!

ولقد حبست أنفاسها بشدة ، عندما سمعتهم يطلقون رصاصات مدافعهم الآلية ، نحو الحفرة الزائفة ، التى ترك فيها سترته ..

وانتفض جسدها كله بمنتهى العنف ، عندما لمحته من مكمنها ، ينقضّ عليهم فى بسالة مذهلة ..

وفى أعماقها ، أيقنت أن القتال لن يستغرق سوى دقائق معدودة محدودة ، على أقصى تقدير ..

القتال بين رجل ..

وجيش ..

ولكن دوى الرصاصات توالى ..

ودوى الانفجارات اتصل ..

ووقع حوافر الجياد على الرمال ، كان يعنى أنه مازال يقاوم ..

ويصمد ..

ويقاتل ..

ولقد بهرها هذا بحق ..

بهرها على نحو لم يحدث من قبل قط ..

وعلى الرغم من هذا ، فهى لم تفقد يقينها ، من أنه هالك لا محالة ..

كان الأمر بالنسبة لها منطقيًا ..

وإلى أقصى حد ..

فرجل واحد ، مهما بلغت قوته ، يمكن أن يهزم فريقًا من خمسة رجال ..

أو ستة ..

أو حتى عشرة ..

ولكن من المستحيل ، والمستحيل تمامًا ، أن يهزم جيشًا ..

ولكن الدوى طال ..

وطال ..

وطال ..

وكل الأصوات كانت توحى بأن القتال يتصل ..

ويتصل ..

ويتصل ..

وتحوّل انبهارها إلى ذهول ..

مستحيل أن يكون هذا حقيقة !!

أى رجل هذا !

أى رجل ، ذلك الذى يواجه جيشًا كاملاً ، من الرجال والعتاد ..

ويهزمه ..

أو على الأقل ، يصمد أمامه لكل هذا الوقت ..

ولأوّل مرة ، منذ بدأ القتال ، بدأ يراودها تساؤل ، لم يدر بخلدها قط من قبل ..

تُرى هل يمكن أن ينتصر ؟!

هل ؟!

ومع تساؤلها ، سمعت دوى الانفجار الأخير العنيف ، يأتى من بعيد ..

ثم سمعت صوت سيارة (جيب) تقترب من الحطام ..

وتقترب ..

وتقترب ..

ثم تتوقّف على مسافة ثلاثة أمتار منها فحسب ..

وانكمشت (هوليا) فى مكمنها أكثر وأكثر ، وراح جسدها يرتجف بمنتهى العنف ، ووقع أقدام ثقيلة يواصل الاقتراب منها ، مع دوى رصاصات يأتى من بعيد ، و ...

وفجأة ، كشف أحدهم بقايا المقعد المحترق ، الذى أخفى به (أدهم) مدخل المخبأ الصغير ..

وشهقت (هوليا) فى رعب ، وهى تحدق فى وجه (رودريجز) ، الذى ابتسم ابتسامة ظافرة واسعة ، برزت معها أسنانه الصفراء الكبيرة القذرة ، وهو يقول :

- مرحبًا يا جميلتى .. كنت أعلم أننى سأجدك هنا .

ودارت عينا الروسية الحسناء فى محجريهما ، وغامت الدنيا أمامها ، و ...

وهوت فاقدة الوعى ..

وفى نفس هذه اللحظات ، كانت سيارة (أدهم) الجيب قد تلقت موجة الانفجار كلها فى جانبها ، فاختلّ توازنها ، وانقلبت براكبها فى عنف ..

ومن بعيد ، صرخ قائد (الجيب) الثانية :

- ها .. لقد سقط فى قبضتنا .

ومع صرخته ، أطلق باقى الجنود صرخات همجية ظافرة ، ولوّحوا بمدافعهم الآلية ، وهم ينطلقون خلف (الجيب) الثانية نحو (الجيب) المقلوبة ..

وبإرادة فولاذية ، قاوم (أدهم) تلك الدوار ، الذى يهاجم عقله وكيانه فى عنف ، وراح عقله المنهك يعيد دراسة الموقف كله ، على ضوء المعطيات الجديدة ، وأدرك أن موقفه دقيق وعسير بالفعل ..

وإلى أقصى حد ..

فها هو ذا ، ملقى إلى جوار سيارة مقلوبة ، وتنقض عليه سيارة جيب قوية ، خلفها أكثر من عشرين فارسًا مسلحًا بالمدافع الآلية ..

وبمعادلة بسيطة ، يتضح أن احتمال نجاته يساوى صفرًا ..

على أفضل تقدير ..

ولكن لا ..

لا يمكنه أن يستسلم قط ..

لقد قطع شوطًا طويلاً بالفعل ، وتجاوز مرحلة شبه مستحيلة ، ولا يمكن أن يتوقف الآن .

أبدًا ..

كانت (الجيب) ، والفرسان من خلفها يقتربون ..

ويقتربون ..

ويقتربون ..

وعليه أن يجد الوسيلة المناسبة ..

و ...

وفجأة ، قفزت الفكرة إلى ذهنه ..

صورة كاملة ، ارتسمت في رأسه ، وكأنما ألقاها إليه الوحي بغتة ، ودون أية مقدمات ..

وبنظرة سريعة ، أحصى المدافع الآلية ، داخل الجيب المقلوبة ..

ثلاثة مدافع آلية ، نفدت نصف ذخيرتها ..

ولكنها تكفى ..

وبسرعة ، ودون أن يضيع لحظة واحدة ، التقط أقرب المدافع الآلية إليه ، ودفع مؤشره ، لينقله من حالة الإطلاق المتصل ، إلى الإطلاق الفردى ، رصاصة فرصاصة ، وهو يغمغم :

ـ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة .. بإذن الله (سبحانه وتعالى)[*] ..

ثم رقد على بطنه ، وأسند كعب المدفع الآلى إلى كتفه ، وصوبه إلى إطارات الجيب ، التى تنطلق نحوه ، وتقترب بسرعة أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

(*) بسم الله الرحمن الرحيم : { كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله } .. (صدق الله العظيم) الآية ٢٤٩ (م) من سورة البقرة ـ القرآن الكريم .

والتقط (أدهم) نفسًا عميقًا ، ثم كتم أنفاسه ..

وضغط زناد المدفع الآلى ..

وانطلقت رصاصات المدفع الآلى ، واحدة بعد الأخرى ..

ونسفت الرصاصات إطار الجيب الأمامى ، فاختلّ توازنها فى عنف ، وصرخ قائدها فى ذعر ، وهو يفقد سيطرته عليها :

- لقد فعلها .

ومع صرخته ، انقلبت السيارة ، وقفزت فوق الرمال ، لتتدحرج فى عنف ، وتسحق ثلاثة من ركابها تحتها ..

وجنّ جنون الفرسان ، مع رؤية ما أصاب زملاءهم فى (الجيب) ، فراحوا يصرخون ، ويحثّون جيادهم على الإسراع أكثر ..

وفى تماسك مدهش ، على الرغم من دقة الموقف ، انتظر (أدهم) اقترابهم ، وهو يصوّب المدفع إلى خزان وقود (الجيب) الثانية المقلوبة ..

وعندما أصبح الفرسان إلى جوارها ، ضغط زناد المدفع مرة ..

وثانية ..

وثالثة ..

وأصابت رصاصاته الثلاث هدفها ..

ودوى الانفجار ..

انفجار عنيف ، أطاح بخمسة من الفرسان دفعة واحدة ، وألقى الوقود المشتعل على الباقين ، ليثير بينهم موجة رهيبة من الذعر والاضطراب ..

وأدرك (أدهم) أن ذخيرة المدفع الذى يحمله قد نفدت عن آخرها ، فألقاه جانبًا ، والتقط المدفع الثانى ، وصوّبه إلى الرجال فى إحكام ..

وأطلق النار ..

ومع كل رصاصة يطلقها ، كان يُسقط أحد الفرسان ..

والعجيب أنه ، وعلى الرغم من دقته المدهشة ، ومهارته المذهلة فى التصويب ، لم يصب واحدًا منهم فى مقتل .

فقط أطلق رصاصاته على السيقان والأكتاف ..

وجن جنون الرجال ، و ...

وفجأة ، انبعث صوت (رودريجز) ، عبر أجهزة الاتصال اللاسلكية ، وهو يقول بلهجة آمرة صارمة :

ـ انسحاب كامل .. القتال انتهى .. احملوا جرحاكم ، وعودوا فورًا .

وعلى الرغم من غضب الرجال وثورتهم ، فقد أطاعوا قائدهم وحملوا جرحاهم ، وتراجعوا منسحبين ، وهم يطلقون سبابًا مكسيكيًا غاضبًا ، أفرزه شعورهم بالخزى والعار ؛ لأنهم قد انهزموا هزيمة منكرة ، لأول مرة فى حياتهم ..

وأمام رجل واحد ..

ومن بعيد ، وعلى الرغم من تلك الهزيمة ، تألقت عينا (رودريجز) فى ظفر ، وهو يقول :

ـ عبقرى هو ذلك المصرى .. أليس كذلك يافاتنتى؟!

لم تفهم (هوليا) حرفًا واحدًا ، من عبارته التى نطقها بالأسبانية ، فغمغمت فى توتر :

ـ إننى أتحدث الروسية والإنجليزية فحسب .

أجابها بالإنجليزية :

ـ يا للخسارة .. الفاتنات أمثالك يصبحن أكثر سحرًا ، عندما يتحدثن الأسبانية .

ثم خفض منظاره ، مستطردًا بابتسامة كبيرة .

ـ ولكنك ، وأيًا كانت اللغة التى تتحدثين بها ، تبدين بالنسبة لى جميلة جميلات الدنيا ، ما دمت الجواد الرابح ، الذى سيوقع ذلك المصرى فى قبضتنا .

هتفت مذعورة :

ـ أنا ؟

ابتسم ، قائلاً :

ـ بالتأكيد يا عزيزتى .. بالتأكيد .

ثم تلاشت ابتسامته ، وهو يسألها بغتة ، فى صرامة قاسية :

ـ ما اسمك يا امرأة ؟!

انكمشت فى مقعدها ، وهى تجيب :

ـ (هوليا) ..

التقط المكبّر الصوتى ، وصاح عبره فى صرامة :

ـ يبدو أنك تتصوّر أن انسحابنا هذا يعنى انتصارك ياسيّد (أدهم) .. لو أنك تتصوّر هذا ، فأنت مخطئ تمامًا .

انتبه (أدهم) بحواسه كلها إلى كلمات (رودريجز) ، الذى تابع فى سخرية :

ـ فالواقع أننا ننسحب ؛ لأننا لم نعد بحاجة لمطاردتك .

وانطلقت من حلقه ضحكة عالية مجلجلة ، قبل أن يضيف :

ـ أنت ستأتى إلينا .

انعقد حاجبا (أدهم) ، وهو يتساءل عما تعنيه العبارة ، ولكن تساؤله لم يطل ، إذ أكمل (رودريجز) فى سخرية ظافرة :

ـ لتستعيد (هوليا) الحسناء على الأقل .

قالها ، وأطلق ضحكة أخرى مجلجلة ، قبل أن يشير إلى رجاله ، بالعودة إلى قلعة (ألنزو) ، ثم يلتفت إلى طاقم الدبابة ، قائلاً :

ـ لم تعد لديه وسيلة انتقال سوى قدميه .. وأسلحته كلها تقتصر على بقايا ذخيرة المدافع الآلية .

والتقط نفسًا عميقًا ، قبل أن يضيف :

ـ إنه لك .

هتف قائد طاقم الدبابة :

ـ أوامرك يا كولونيل .

ثم أشار إلى رجاله ، قبل أن يهبط داخل الدبابـة ، ويغلق كوتها فى إحكام ..

وعبر صحراء (المكسيك) ، المنبسطة إلى ما لانهاية ، فى كل الاتجاهات ، انطلقت الدبابة تطارد رجلاً واحدًا ..

رجل اسمه (أدهم) ..

(أدهم صبرى) ..

* * *

« الأمريكيون رفضوا تزويدنا ، بصور أقمارهم الصناعية .. »

نطق مدير المخابرات العامة المصرية العبارة ، فى غضب واضح ، وهو يجلس على قمة مائدة الاجتماعات الرئيسية ، ويتطلع إلى كبار رجاله ومعاونيه ، قبل أن يتابع :

ـ لقد أخبرناهم رسميًا مدى أهمية الأمر ، ولكنهم أنكروا فى البداية ، أن أقمارهم الصناعيـة تمرّ بهذه المنطقة ، من صحراء (المكسيك) ، وعندما واجهناهم

بمعلوماتنا المؤكَّدة ، عن مسارات أقمارهم الصناعيـة ، رفضوا بشدة معاونتنا ، بأى حال من الأحوال ، بحجة أن هذا يدخل ضمن أسرارهم العسكرية .

غمغم أحد معاونيه :

ـ هذا دأبهم دومًا .

وقال آخر فى غضب :

ـ لو أن الإسرائيليين هم الذين طلبوا هذا ، لاستجاب لهم الأمريكيون فورًا .

أشار المدير بيده فى صرامة ، قائلاً :

ـ دعنا لا ننزلق إلى مناقشة هذا الأمر .

وعاد يدير عينيه فى وجوههم ، مستطردًا :

ـ المهم هو مصير (ن ـ ١) .

قال معاونه ، وهو يشير إلى الخريطة الكبيرة :

ـ الخبراء أعدوا دراسة مسار سقوط الطائرة الروسية ،

وانتهوا إلى تحديد نقطة سقوطها بدقة أكثر ، دون الحاجة إلى صور أقمار التجسس الأمريكية ، ولقد قمنا بجمع كل المعلومات الممكنة عن الجنرال المكسيكى المنشق (ألنزو) ، ولدينا خريطة مفصلة الآن ، لقلعته السرية ، التى أقامها فى قلب صحراء (المكسيك) ..

تساءل أحد الرجال :

ـ وماذا عن فكرة الاستعانة بدونا (كارولينا) ؟!

أجابهم المدير شخصيًا :

ـ لقد أجرينا اتصالاً مباشرًا معها ، وأكدت أنها ستتحرك فورًا ؛ لإنقاذ (ن ـ ١) ، مهما كلفها الأمر .

هتف أحدهم :

ـ عظيم .

وغمغم آخر فى توتر :

ـ فكرة التعاون مع منظمة (المافيا) لم تكن تروق لى ، ولكن من الواضح أنها قد أتت بثمارها .

أجاب المدير فى صرامة :

ـ دونا (كارولينا) ستفعل ما بوسعها ، ولكن خبراءنا يؤكدون أنه مهما بلغت سرعة تحركاتها ، فلن يمكنها أن تصل بقواتها ورجالها ، إلى موقع قلعة (ألنزو) ، قبل خمس ساعات كاملة ، وهذا يعنى أن (ن ـ ١) سيواجه ذلك الجيش الشرس المسلح ؛ لخمس ساعات أخرى .

غمغم أحد الرجال فى خفوت :

ـ لو أنه ما زال على قيد الحياة .

وعلى الرغم من خفوته ، التقطته أذنا المدير ، الذى تراجع فى مقعده ، وهو يقول فى صرامة :

ـ فلتأمل هذا ، وإلا فسيصبح كل ما نفعله بلا فائدة .

لم يكد يتمّ عبارته ، حتى دلف مسئول الاتصالات والشفرة إلى حجرة الاجتماعات ، واتجه إلى المدير مباشرة ، ووضع أمامه برقيتين ، وصلتا منذ لحظات ، ثم همس فى أذنه بضع كلمات ، قبل أن ينصرف فى سرعة ..

وفى اهتمام بالغ ، طالع المدير البرقيتين ، قبل أن يرفع عينيه إلى الرجال ، الذين اشتعلوا باللهفة والفضول ، قائلاً :

- دونا (كارولينا) انطلقت مع فريقها بالفعل ، إلى صحراء (المكسيك) .

هتف أحدهم :

- حقاً ؟!

تابع المدير فى حزم ، دون أن يتوقّف عند هذا التعليق :

- من الواضح أن صداقتها لـ (ن - ١) تتجاوز كل ما توقعناه ، فقد حشدت الزعيمة الروحية لمنظمات (المافيا) جيشاً ضخماً من أجله ، وتقول فى برقيتها إنها ستسعى لإنقاذه ، حتى لو اضطرت إلى احتلال (المكسيك) ، وضمّها إلى الولايات المتحدة الأمريكية .

ابتسم أحد الرجال ، قائلاً :

- لو سربنا هذه البرقية إلى (المكسيك) ، فسيهرع الشعب كله هناك خلفها ، على أمل أن تنفذ وعدها(*) .

وقال آخر :

- المهم أن تصل فى الوقت المناسب .

تردّد ثالث ، قبل أن يقول :

- هذا بافتراض أن سيادة العميد (أدهم) مازال ..

قاطعه المدير فى حزم :

- إنهم لم يظفروا به بعد .

استدارت العيون كلها إليه ، فالتقط البرقية الثانية ، قائلاً :

- هذا ما تؤكده هذه المعلومات ، الواردة من أحد هواة الاتصال اللاسلكى فى (المكسيك) ، والذى التقط

(*) تؤكد الإحصائيات الرسمية ، أن أضخم عدد من المهاجرين غير الشرعيين ، فى الولايات المتحدة الأمريكية ، ينتمى إلى (المكسيك) ، حيث تتم سنوياً ملايين المحاولات لعبور الحدود ، والعيش فى (أمريكا) ، ويبلغ عدد الحالات ، التى تنجح فى هذا ، ما يزيد على المائتى ألف حالة سنوياً (من الناحية الرسمية) .

مجموعة من الاتصالات ، من منطقة الصحراء ، توحى بأن جيشًا ما يطارد رجلاً واحدًا .

ثم تراجع فى مقعده ، مضيفًا بابتسامة خافتة :

- من يمكن أن يكون ذلك الرجل فى رأيكم ؟!

ران عليهم جميعًا صمت ثقيل ، قبل أن يغمغم أحدهم :

- جيش كامل يطارده .

أشار المدير إلى البرقية ، قائلاً :

- ذلك الهاوى يقول : إن الاتصالات توحى بأنه يثير جنونهم ، على الرغم من تفوقهم العددى .

هتف أحد رجال المخابرات فى حماسة :

- إنه هو .

وتنهد الآخر فى ارتياح ، قائلاً :

- سيادة العميد (أدهم) وحده ، يمكنه أن يفعل هذا .

قال المدير فى صرامة :

- إلى متى ؟!

استدارت العيون كلها إليه مرة أخرى ، فتابع بمنتهى الحزم :

- كل شىء يؤكد أن (ن - ١) لم يلق مصرعه ، مع سقوط الطائرة الروسية ، على الرغم من اشتعالها فى الجو ، وأنه يواجه الآن جيش الجنرال (أنتزو) بمفرده ، ولكن أرض المعركة ، كما تقول كل الخرائط ، عبارة عن صحراء شاسعة منبسطة ، فإلى متى يمكن أن يصمد ويقاتل رجل واحد ، ضد جيش كامل ، فى ساحة كهذه ؟!

ولم ينطق أحدهم بحرف واحد ..

فالسؤال لم يكن يحتمل أى جواب ..

إنه سيبقى فحسب كسؤال ..

إلى متى يمكن أن يصمد (أدهم صبرى) ؟!

إلى متى ؟!





٥ ـ مسألة وقت ..

احتقن وجه الجنرال (ألنزو) فى شدة ، وحمل صوته وملامحه كل ما يعتمل فى نفسه من غضب وثورة ، وهو يصرخ فى وجه (رودريجز) :

ـ انتصار ؟! أى انتصار هذا الذى تتحدث عنه يا كولونيل .. لقد خرجت على رأس جيش صغير ، مكوّن من خمسين رجلاً ، وثلاث سيارات جيب ودبابة ، ومدفع ميدان ، للقضاء على رجل واحد ، ثم عدت بعشرين رجلاً ، نصفهم مصابون ، وسيارة جيب واحدة ، ومدفع ميدان نفدت ذخيرته ، ثم تسمى هذا انتصارًا .

جذب (رودريجز) (هوليا) فى خشونة ، قائلاً :

ـ وعدت بهذه أيضًا .



جذب (رودريجز) (أولجا) في خشونة ، قائلاً :
ـ وعدت بهذه أيضاً ..

صاح (ألنزو) في ثورة :

ـ مضيفة روسية ؟! أهذا ما تزهو بـه يا كولونيل ؟! هل خسرت كل هذا ، لتفوز بامرأة حسناء فحسب ؟! إنها لاتساوى حتى ثمن الدبابة ، التى تركتها خلفك هناك !

قال (رودريجز) فى صرامة :

ـ الدبابة تركتها لتطارد ذلك المصرى ، فى قلب صحرائنا .. وهو خصم غير عادى ، وغير تقليـدى ، كما علمنا منذ البدايـة ، ومستر (X) حذرنـا من أن المواجهة لن تكون بسيطة أبـداً ، ولو أنك راجعت ملف ذلك المصرى ، كما فعلت أنا ، لأدركت أنه ....

احتقن وجه (ألنزو) ، وهو يقاطعه فى حدة :

ـ ماذا تقول يا كولونيل ؟! أليست لديك وسيلة أفضل ؛ لتبرير هزيمتك المنكرة ؟!

انتقل الاحتقان إلى وجـه (رودريجـز) ، وهـو يقول فى غضب :

ـ إنك لم تر كيف يعمل ذلك الرجل يا جنرال !

صاح (ألنزو) ، وهو يلوّح بيده فى ثورة :

ـ إنه مجرّد رجل واحد ..

« رجل بألف رجل يا جنرال .. »

تطلقت (لورا) العبارة فى هدوء ، وهى تنفث دخان سيجارتها فى عمق ، فالتفت إليها (ألنزو) ، وهو يقول فى حدة :

ـ سيّدتى .. سأحمل لك الكثير من الامتنان ، لو واصلت صمتك المهذّب ، وتركت مناقشة أمور الحرب لنا .

ابتسمت (لورا) ، قائلة فى عذوبة :

ـ بالتأكيد يا جنرالى العظيم .. الاستماع إليك متعة كبيرة ، لا يصح أن أفسدها بكلماتى الحمقاء .

حدّق (رودريجز) فيها بدهشة ، وتساءل فى أعماقه فى سخط : أى أحمق يمكن أن تخدعه كلمات معسولة كهذه ، ولكنه فوجئ بابتسامة كبيرة ، ترتسم على شفتى الجنرال (ألنزو) ، وهو يقول :

ـ كلماتك ليست حمقاء أبدًا يا جميلة الجميلات ،

ولكن النساء لا تفهمن كثيرًا شئون الحرب والقتال .

لوّحت بأصابعها فى رقة ، قائلة :

ـ بالطبع يا جنرالى .. هذا نتركه للرجال الأقوياء أمثالك .

ثم مالت إلى الأمام فى بطء ، مستطردة بابتسامة ساحرة :

ـ ولكن صدقنى .. أنا أعرف (أدهم صبرى) هذا ، أكثر مما يعرفه أى واحد منكم .

وخفضت صوتها ، لتضيف بلهجة خاصة :

ـ وهو أخطر مما تتصوّر بكثير .

بحّ صوته ، وهو يقول فى انفعال :

ـ حقًا ؟!

تراجع (رودريجز) فى دهشة ، مع التأثير القوى ، الذى أحدثته (لورا) فى الجنرال ، فى حين اعتدلت هى على مقعدها ، وارتسمت على شفتيها ابتسامة واثقة ، وهى تقول :

- إنها ليست أوّل مرة يفعل فيها هذا .. لقد واجه منظمات كاملة ، وسحقها سحقًا بمفرده .

كرّر الجنرال (ألتزو) فى انبهار أكثر :

- هل فعلها حقًّا ؟!

أومأت برأسها إيجابًا ، قبل أن تقول فى حزم :

- ولا توجد سوى وسيلة واحدة للسيطرة عليه .

سألها (ألتزو) فى لهفة :

- وما هى ؟!

تراجعت لتسترخى فى مقعدها ، ونفثت دخان سيجارتها ، فى بطء وعمق ، قبل أن تشير إلى (هوليا) ، قائلة :

- هذه المرأة ، التى أحضرها الكولونيل (رودريجز) .

لم تفهم (هوليا) حرفًا واحدًا ، من الحديث الذى تبادلوه بالأسبانية طوال الوقت ، ولكنها لم تكد ترى سبّابة (لورا) تشير إليها ، حتى ارتجفت فى رعب ، وانكمشت فى مكانها ، مردّدة فى عصبية :

- ماذا تريدون منى ؟! أنا لم أفعل شيئًا .

ولكن الجنرال (ألتزو) التفت إليها ، قائلاً :

- حقًّا ؟! أهذه المرأة ، التى أحضرها الكولونيل ، هى أقوى سلاح يمكن أن نواجه به ذلك المصرى ؟!

انعقد حاجبا (رودريجز) ، فى دهشة متوترة ، عندما غمزت له (لورا) بعينها ، ومنحته ابتسامة ساحرة ، مع ابتعاد بصر الجنرال (ألتزو) عنها ، وبدا عليه التوتر ، وهو يقول :

- هذا ما أردت شرحه يا جنرال ؛ فنقطة الضعف الوحيدة ، فى شخصية ذلك المصرى ، هى اهتمامه الزائد بالآخرين ، وسعيه الدائم لإنقاذهم ، إذا ما تعرّضوا للخطر .

بدا الشك على وجه (ألتزو) ، وهو يقول :

- ولكنه لم يعرف هذه المضيفة الروسية ، إلا منذ ساعات قليلة .

قالت (لورا) ، وهى تنفث دخان سيجارتها فى هدوء :

- لن يمنعه هذا من المجازفة بحياته من أجلها .

ثم عادت تميل إلى الأمام ، مضيفة :

ـ وعندما يفعل ، سنكون فى انتظاره هنا .

نقلت (هوليا) بصرها بينهم ، قبل أن تهتف فى انهيار :

ـ ماذا تريدون منى ؟!

أدارت (لورا) بصرها إليها ، وقالت بالروسية ، فى صرامة مخيفة :

ـ اصمتى .

انكمشت (هوليا) فى مكانها ، بكل رعب الدنيا ، فى حين انعقد حاجبا (رودريجز) فى شدة ، وهو يرمق (لورا) المبتسمة بنظرة عصبية ، وظل الجنرال (ألنزو) صامتًا ، يفكّر فى عمق ، قبل أن يقول فى حزم :

ـ فليكن .. سنستعد لمواجهة ذلك المصرى .

والتقط نفسًا عميقًا ، قبل أن يضيف :

ـ لو نجا من الدبابة .

رفعت أحد حاجبيها وخفضته ، وهى تقول فى لهجة ملؤها السخرية :

ـ تقصد لو نجت منه الدبابة .

وانعقد حاجبا (رودريجز) أكثر وأكثر ..

فعبارتها الأخيرة لم ترق له أبدًا ، وعلى الرغم من هذا ، فقد فجّرت فى أعماقه تساؤلاً مخيفًا ..

تُرى ماذا يحدث الآن ، فى تلك المواجهة ، التى تدور فى قلب صحراء (المكسيك) الشاسعة ، بين (أدهم) والدبابة ؟!

ومن سينتصر فى النهاية ؟!

من ؟!

من ؟!

* * *

ارتسمت ابتسامة كبيرة ، على شفتى قائد طاقم الدبابة ، وهو ينطلق بها على رمال الصحراء نحو الجيب

المقلوبة ، التى أطلق (أدهم) منها رصاصاته ، وهتف فى سخرية ، وهو يصوّب مدفع الدبابة نحوها :

ـ فليرنا ذلك المصرى المتحذلق ، كيف سيواجهنا برصاصاته الصبيانية هذه .

قالها ، ثم جذب ذراع الإطلاق ..

وانطلقت قذيفة الدبّابة ..

وبدوى هائل ، انفجرت الجيب ..

ثم اشتعلت النيران فى بقاياها ..

وقهقه قائد الطاقم فى ظفر ، صائحًا :

ـ يا للبساطة ! لقد سحقنا ذلك المصرى بضربة واحدة .

غمغم أحد أفراد الطاقم :

ـ إننا لا ندرى إذا ما كان هناك أم لا .

انعقد حاجبا القائد ، وهو يقول فى حدة :

ـ وأين سيذهب ؟!

أجابه الرجل فى توتر :

ـ لو أنه زحف مبتعدًا عن الجيب ، لما أمكننا رؤيته ، من هذه المسافة .

صمت القائد لحظات ، وهو يدرس ذلك الاحتمال ، قبل أن يشير إلى الرجل الثالث ، قائلاً فى صرامة :

ـ افحص المنطقة جيدًا .

جذب الرجل منظار الدبابة ، ورفعه خارجها ، وراح يديره فيما حوله ، وهو يفحص المنطقة كلها ..

كانت جثث فرسان (ألنزو) متناثرة ، هنا وهناك ، مع حطام (الجيب) الثانية وجثث بعض الجياد ..

ووسط كل هذا ، كان من العسير تمييز جسد (أدهم) بالذات ..

لذا ، فقد غمغم المراقب فى توتر :

ـ وكيف يمكننى معرفته ، وسط كل تلك الجثث ؟!

زمجر قائد الطاقم ، قائلاً :

ـ إنه لا يرتدى زينا أيها العبقرى .

مطَّ الرجل شفتيه ، وهو يغمغم فى عصبية :

ـ مع الدماء التى ....

بتر عبارته بشهقة مباغتة ، عندما لمح ظلاً يتحرك فى سرعة ، أمام منظاره مباشرة ، فهتف به القائد :

ـ ماذا هناك ؟!

صاح الرجل فى حدة :

ـ إنه هنا .

اتسعت عينا الرجل الأول ، والقائد يهتف فى عصبية :

ـ ماذا تعنى بكلمة (هنا) هذه ؟!

هتف المراقب فى ذعر :

ـ حولنا .

انعقد حاجبا القائد فى شدة ، وهو يقول :

ـ حولنا ؟! ولكن كيف ؟!

أجابه الأول فى عصبية :

ـ لقد زحف على الرمال ، من زاوية تعجز معها

عن رؤيته ، حتى دخل مجال عدم الرؤية ، حيث يمكنه أن يتحرك بحرية ، دون أن يمكننا رصده بدون مراقب خارجى(*)..

انتقل التوتر إلى قائد الطاقم ، وهو يقول :

ـ مستحيل ! لا يمكن أن تكون لديه كل هذه الخبرة ، فى مواجهة الدبابات !! هذا يحتاج إلى العمل فى....

قاطعه الأول فى عصبية :

ـ إنه رجل مخابرات كما يقولون ، وأمثاله يتم انتقاؤهم فى المعتاد ، من رجال العمليات الخاصة فى الجيش(**)..

(*) لكل طراز من الدبابات مجال رؤية محدود ، بالنسبة للطاقم داخلها ، ومدفعها لا يمكنه التصويب ، على أهداف شديدة القرب ، وفى حالة تحركها فى مكان ضيق ، يتحتم أن يبرز أحد أفراد طاقمها من برجها ، لرصد الأجسام القريبة منها .

(**) جرت العادة ، فى معظم أجهزة المخابرات فى العالم ، على انتقاء العناصر الناجحة ، من صفوف الجيش ، بأفرعه المختلفة ، لضمهم إلى المخابرات ، حيث تفيد تدريباتهم الأولية على تفوقهم ، فى مجال العمليات الخارجية بالتحديد ، ولكن هذا لا يمنع انتقاء بعض المدنيين المتفوقين ، للعمل تحت اللواء نفسه ، فى ظروف خاصة .

مع آخر حروف كلماته ، سمع ثلاثتهم فى وضوح وقع قدمين قويتين ، وثبتا فوق الدبابــة ، فصـاح المراقب فى ذعر :

ـ ها هو ذا .

صرخ فيه القائد :

ـ ولماذا يخيفك هذا ؟!

ثم عقد حاجبيه فى شدة ، مضيفًا بكل الصرامة :

ـ سنلقيه أرضًا .

وأدار عجلة كبيرة أمامه ، مستطردًا :

ـ وبعنف .

مع إدارته للعجلة ، دار برج الدبابة حول نفسـه ، بأقصى سرعة تسمح بها ميكنته ، وهتف الأول :

ـ هل تعتقد أنه لايدرك هذا ؟!

صاح به القائد فى حدة :

ـ اصمت يا رجل .

كان يحرك البرج ، فى كل اتجـاه ممكن ، دون أن تظهر بادرة واحدة ، توحى بتأثير هذا ، على خصمهم الذى اعتلى دبابتهم ، فى جرأة مدهشة ..

وفى عصبية ، غمغم المراقب :

ـ هل سنتركه هكذا ؟!

انتفض القائد ، وهو يهتف :

ـ مستحيل !

ثم التقط مدفعه الآلى ، مستطردًا فى حزم :

ـ لن نسمح لرجـل ، بالسيطرة على دبـابة .. هذا لم يحدث من قبل قط .

صاح به الرجل الأول فى ذعر :

ـ هل .. هل ستفتح كوة البرج ؟!

صاح به فى غضـب ، وهو يدير عجلة الكوة :

ـ كيف تتوقع مواجهتى له إذن ؟!

انكمش المراقب فى مكانه ، قائلاً :

- بعدما رأيت كيف يعمل ذلك المصرى ، لا أتمنى مواجهته أبدًا .

صاح به القائد فى حدة :

- ماذا نفعل إذن أيها العبقرى .

أجابه الأول فى لهفة :

- نعود إلى القلعة .

توقف القائد ، ليسأله فى دهشة :

- ماذا ؟!

أجابه الرجل ، فى انفعال أكثر :

- أنت رأيت مثلنا كيف يعمل ذلك الرجل ، ومن الواضح أنه ماهر بشدة ، وإلا لما أمكنه اعتلاء دبابتنا ، دون أن نشعر باقترابه منا ، ولقد أخطأ الكولونيل ، عندما تركنا وحدنا لمواجهته .. كان من الضرورى أن يكون هناك مراقب خارجى؛ لمنعه من بلوغ هذا الموقف الشاذ ، الذى سيطر فيه علينا ، وجعلنا نخشى مجرد الخروج لمواجهته .

ثم مال إلى الأمام ، ولهث من فرط الانفعال ، وهو يتابع :

- ولو جازفنا بالخروج ، قد يباغتنا هو بهجوم عنيف ، أو بقنبلة يلقيها عبر فتحة البرج ، لينسفنا عن آخرنا ، أما لو عدنا إلى القلعة ، وأبلغنا الرجال هناك لاسلكيًا ، لانتظار قدومنا ، لن يكون أمامه سوى أن يقفز بعيدًا عن الدبابة ، وعندئذ يمكننا رصده داخليًا ، واصطياده بالمدفع الآلى ، أو نسفه بمدفع البرج ، أو أن يبقى ، فيرصده الرجال عند القلعة ، وينسفونه برصاصاتهم .

بدت كلماته منطقية تمامًا ، حتى إن قائد الطاقم قد تراجع إلى مقعده ، وجلس يفكر بضع لحظات ، قبل أن يقول فى صرامة :

- القول قولك .

ثم أشار إلى الأول ، مستطردًا :

- أبلغ الرجال بالموقف كله ، عبر جهاز الاتصال

اللاسلكى ، وأخبرهم أننا سنعود إلى القلعة فورًا ، أما أنت أيها المراقب ، فلا أريد لعينك أن تغفل لحظة واحدة ، حتى يمكنك رصد ذلك المصرى ، إذا ماوثب عن متن الدبابة .

قالها ، وأدار دفة الدبابة ، لينطلق بها مرة أخرى على الرمال ، عائدًا إلى القلعة ..

قلعة الجنرال (ألتزو) ..

وعلى متن الدبابة ، ذات الطراز العتيق ، كان (أدهم) يعيد دراسة الموقف كله مرة أخرى ، وهو يدرك جيدًا ، مع المسار الذى اتخذته الدبابة ، أنه لم يعد أمامه سوى خيارين ، خيرهما مر كالعلقم ..

ومميت كالدهر ..

أو أشد عنفًا ..

* * *

لم يكد رنين هاتف (كارلو فيفيانى) ينطلق ، حتى

التقطه بحركة سريعة ، وألقى نظرة على الرقم الذى سجلته شاشته ، قبل أن يضغط زر الاتصال ، قائلاً فى حماسة واحترام :

ـ مرحبا يا دونا .. كل شىء يسير كما أمرت تمامًا .. إننى داخل الطائرة بالفعل ، مع جيش من رجالنا ، ولقد عبرنا صحراء (أريزونا) بالفعل ، وسنتجاوز حدود (المكسيك) خلال دقائق ، و ....

قاطعته بصرامة مفاجئة :

ـ ما الأمر الثانى يا (كارلو) ؟!

بدت عليه الدهشة ، وهو يغمغم فى حذر :

ـ أى أمر ثان يا دونا ؟!

سألته بنفس الصرامة :

ـ عندما بدأ كل هذا ، أخبرتنى أنه لديك أمران ، خارج التقارير الرسمية ، ولكنك لم تخبرنى بالأمر الثانى بعد .

شعر (كارلو) بالدهشة ؛ لأن دونا تتذكر أمرًا كهذا ، فى ظروف كهذه ، ولكنه تنحنح ، قائلاً :

ـ لابأس يادونا .. يمكن لهذا أن ينتظر ، حتى ....

قاطعته بصرامة عصبية :

ـ وما الأمر الثانى يا (كارلو) ؟!

أدرك من لهجتها مدى إصرارها على معرفة مالديه ، فتنحنح مرة أخرى ، وقال :

ـ فليكن يا دونا .. الواقع أنها مجرَّد شكوك ، دون دليل واحد .

قالت فى غضب :

ـ أخبرنى ما لديك ، واترك لى مهمة تقييمه .

ازدرد لعابه ، وقال فى سرعة ، محاولاً ألا يغضبها :

ـ هناك ما يوحى بوجود ثقب فى خزانة أسرارنا يا دونا .

صمتت طويلاً ، وكأنما صدمها هذا ، قبل أن تسأله فى صرامة ، شفَّت عما يعتمل فى أعماقها :

ـ هل علمت لحساب من ؟!

أجابها فى حذر :

ـ تحرياتى لم تكتمل بعد يا دونا .

صمتت طويلاً مرة أخرى ، على نحو يوحى بأنها تجرى بعض الحسابات فى ذهنها ، قبل أن تقول فى صرامة عصبية :

ـ عندما ننتهى من عملية (المكسيك) هذه ، أريد منك أن تضع هذا على رأس أولوياتك .

قال فى حزم :

ـ بالتأكيد يا دونا .. بالتأكيد .

صمتت لحظة أخرى ، ثم قالت فى توتر :

ـ من الواضح أن عدد الطامعين فى اللقب يتزايد ، على نحو مخيف .

قال فى حزم أكثر :

ـ لن نتخلَّى عنه يا دونا .

قالت فى صرامة :

ـ هذا يجعل عملية إنقاذ (أدهم) أكثر خطورة .

لم يدر سببًا منطقيًا ، لربط هذا بذاك ، ولكنه غمغم فى حذر :

ـ كما تأمرين يا دونا .

قالت بنفس الصرامة :

ـ لقد استأجرت طائرة نفاثة ضخمة ، حتى يمكننى اللحاق بكم فى (المكسيك) .

قال فى قلق شديد :

ـ لست أجد داعيًا ، لتعريض نفسك شخصيًا ، لمواجهة كهذه يا دونا .

قالت فى سرعة :

ـ (أدهم) يستحق هذا .

وعادت إلى صمتها بضع لحظات ، ثم أضافت فى حزم :

ـ ولكن ترك (نيويورك) ، فى ظروف كهذه ، هو منتهى الحماقة بحق .

قال ، دون أن ينتبه إلى كلماته :

ـ هذا صحيح .

أدهشه أن نطق هذا القول ، الذى تصوَّر أنه سيغضبها إلى حد الجنون ، فهمَّ بالاعتذار بسرعة ، لولا أن سبقته هى ، قائلة :

ـ لذا ، فسأعود إلى (نيويورك) فورًا .

تنفس الصعداء ، وهو يقول :

ـ قرار حكيم يا دونا .

لاذت بالصمت لدقيقة كاملة ، شعر خلالها بقلق عارم ، قبل أن تقول ، بكل توتر وصرامة الدنيا :

ـ ابذل حياتك لو اقتضى الأمر يا (كارلو) ، حتى يظل (أدهم) سالمًا .

قال فى حزم :

ـ سأفعل يا دونا .

أنهت الاتصال على الفور ، فأضاف هو فى خفوت :

ـ لو وجدناه على قيد الحياة .

وكانت هذه هى المشكلة الحقيقية ..

أن يجدوه ..

وعلى قيد الحياة ..

* * *

بكل الاهتمام والانتباه ، استمع مستر (X) إلى حديث (لورا كيلرمان) ، وهى تقصّ عليه تفاصيل ما حدث ، فى الساعات الأخيرة ، عبر شاشة جهاز الاتصال الخاص ، الذى حملته معها فى رحلتها ، حتى انتهت من روايتها ، وهى تلوّح بكفها ، قائلة :

ـ وهكذا تم إعلان حالة الطوارئ الكاملة فى القلعة ، والكل ينتظر عودة الدبابة ، التى يقلّها (أدهم) ، وأوامر

(رودريجز) تحتم نسفها ، لو اقتضى الأمر ، على ألا يخرج رجلنا من هنا حيًّا يرزق .

صمت (X) طويلاً ، على نحو يوحى باستغراقه فى تفكير عميق ، قبل أن يقول فى لهجة عجيبة ، لم تستطع فهم ما تحويه من انفعال :

ـ سيأتى .

مالت متسائلة :

ـ ماذا ؟!

ارتفع صوته ، وهو يقول فى صرامة :

ـ (أدهم صبرى) سيأتى .

اعتدلت ، قائلة فى حيرة :

ـ الكل هنا يعلم هذا !

جاء دوره ليميل إلى الأمام ، قائلاً :

ـ سيأتى من حيث لا يتوقّعه أحد .

لهثت فى انفعال ، وهى تسأله :

ـ هل تعتقد هذا ؟!

بدا الاهتمام شديد الوضوح ، فى نبرات صوته القاسية ، وهو يقول :

ـ (أدهم) ليس غبيًا .. إنه محترف ، ويدرك مايفعله جيدًا والأقوى أنه يدرك أيضًا كيف يفكر الآخرون ، وهو لن يأتى أى فعل أخرق ، مالم يخف خلفه خطة بارعة ، إلى درجة لا يمكن أن يتصوّرها أحد .

اتسعت عيناها عن آخرهما فى انبهار ، قبل أن تتراجع فى مقعدها ، وتنفث دخان سيجارتها ، قائلة :

ـ بدأت تثير انبهارى بذلك المصرى .

تجاهل تمامًا عبارتها الأنثوية ، وهو يقول :

ـ ومهما فعلوا ، أو اتخذوا من احتياطات ، فسيصل (أدهم) إلى القلعة حتمًا .

هتفت :

ـ كم أتمنى رؤية هذا يحدث .

صمت لحظة ، ثم قال فى صرامة :

ـ لن تشاهديه أبدًا .

اعتدلت فى مقعدها ، قائلة فى حدة :

ـ ماذا تعنى يا مستر (X) ؟!

أجابها فى صرامة أكثر :

ـ سترحلين على الفور .

اتسعت عيناها فى دهشة بالغة ، وحدقت فى شاشة الاتصال بعض الوقت ، قبل أن تقول فى عصبية :

ـ كنت أظن أننى قد قطعت كل هذه المسافة ؛ لضمان نجاحهم فى القضاء على (أدهم صبرى) هذا .

أجابها فى خشونة :

ـ بالضبط .

ثم أضاف فى قسوة :

ـ وسترحلين الآن .

كانت تثور على أوامره ، وتدخل معه فى نقاش عنيد طويل ، إلا أنها أدركت أن هذا سيجعل موقفها أكثر ضعفًا ، عندما تضطر للاستسلام فى النهاية ، فتراجعت ، قائلة فى عصبية :

ـ فليكن .

تراجع بدوره فى مقعده ، قائلاً :

ـ عظيم .

وصمت لحظة ، ثم أضاف :

ـ والآن ، هل ترين الحليتين الذهبيتين ، اللتين تحملان رمز (X) ، على جانبى جهاز الاتصال ؟!

نقلت بصرها بين الحليتين ، قائلة :

ـ بالتأكيد .

قال فى حزم آمر :

ـ اضغطيهما معًا .

أطاعته فى حذر ، ولم تكد تضغط الحليتين معًا

حتى برز الجزء السفلى من جهاز الاتصال إلى الخارج ، وشهقت هى ، هاتفة :

ـ ما هذا بالضبط ؟!

أجابها فى سرعة وحزم :

ـ هذا سبب ثقل جهاز الاتصال ، الذى تصورتم جميعًا أنه يعود إلى آلياته المتقدّمة .

سألته فى عصبية :

ـ وما هو ؟!

أجابها فى بطء :

ـ (سى ـ ٤)(*) .

شهقت مرة أخرى ، صائحة :

ـ هل كنت أحمل قنبلة ؟!

(*) (سى ـ ٤) : (C4) : مفجّر لدن ، سهل التشكيل له لون رمادى فاتح ، شديد الثبات ، يذوب فى مادة (الأسيتون) ، و لاينفجر بالاشتعال ، وإنما يحتاج إلى مفجّر مباشر ، وهو يتكوّن من أربع مواد : (RDX) ، و(Poly Iso Butylene) ، و(Diethyl Hexyl) ، و(Motor Oil) ، ومن هنا جاءت إضافة رقم (٤) إلى اسمه .

قال فى ظفر مزهو :

ـ ليس قنبلة فحسب ، وإنما ما يكفى لتحويل قلعة الجنرال (ألونزو) ، بكل ما فيها ومن فيها ، إلى كومة من التراب ، خلال لحظات معدودة محدودة .

كرّرت فى غضب :

ـ وأنا أحملها طوال الوقت ؟!

قال بلهجة آمرة :

ـ أعيدى الجزء السفلى إلى موضعه .

كرّرت بغضب هادر مستنكر :

ـ كنت أحمل قنبلة طوال الوقت ، دون أن تحاول تحذيرى ؟!

صاح بكل صرامة الدنيا :

ـ أطيعى الأمر فورًا .

احتقن وجهها بشدة ، وهى تدفع الجزء السفلى من جهاز الاتصال ، لتعيده إلى موضعه ، قائلة فى عصبية :

ـ هذه القنبلة كانت للتخلُّص منى ، إذا ما لزم الأمر .. أليس كذلك ؟!

أجابها فى هدوء عجيب :

ـ التخلُّص منك لايحتاج إلى كل هذه الكمية من الـ (سى ـ ٤) ، يا عزيزتى (لورا) .

قالت فى حدة :

ـ لماذا كنت أحملها إذن ؟!

أجاب فى سرعة وحزم :

ـ لظروف كهذه .

سألته فى حدة :

ـ وماذا ستفعل القنبلة ، فى ظروف كهذه ؟!

أجابها فى اهتمام :

ـ خلال أقل من نصف ساعة من الآن ، وفقًا لما رويت ، ولتقديراتى الشخصية ، سيصبح (أدهم صبرى) داخل قلعة (ألنزو) ، وسيكون القتال عنيفًا ، ومن

المحتمل جداً أن يستعيد تلك المضيفة الروسية ، على الرغم من كل ما سيتخذونه من احتياطات .

قالت بأنفاس مبهورة :

ـ أهو مدهش إلى هذا الحد ؟!

واصل فى خشونة ، متظاهراً بأنه لم يسمعها :

ـ وعندئذ يحين دور القنبلة .

اتسعت عيناها ، وهى تهتف :

ـ هل ستنسف القلعة ؟!

أجاب فى سرعة :

ـ بكل ما فيها ، ومن فيها .

حدقت فى الشاشة بضع لحظات فى ذهول ، قبل أن تتراجع ، وتعقد حاجبيها فى صرامة ، وهى تلقى سيجارتها أرضاً ، وتسحقها بقدمها فى حدة ، قائلة :

ـ وماذا لو رفضت تنفيذ أوامرك هذه المرة ؟! هل ستتخلص منى أيضاً ؟!

قال فى هدوء عجيب :

ـ لو أردت التخلص منك ، لما طالبتك بالرحيل فوراً .

هزت كتفيها ، قائلة فى عناد :

ـ وماذا لو بقيت ، وأخبرت (ألنزو) بالأمر كله ، و ....

قاطعها فى حزم :

ـ سيكون هذا أكبر خطأ ترتكبينه ، فى حياتك كلها .

صاحت فى حدة :

ـ هل تهددنى مرة أخرى ؟!

استعاد هدوءه ، قائلاً :

ـ لم يعد هناك معنى للتهديد الآن ، فلو ضغطت ذلك الزر الأصفر ، من جهاز الاتصال ، لأدركت أن وقت المناقشة قد ولى بالفعل .

ترددت لحظة ، قبل أن تضغط ذلك الزر الأصفر ، ولم تكد تفعل ، حتى ظهر توقيت تنازلى ، فى زاوية



حدّقت فى التوقيت التنازلى لحظة ، قبل أن تختطف حقيبتها الصغيرة ، هاتفة :
ـ سأفعل .. ولكننى لن أنسى هذا أبداً .

الثالثة ، يقل ببضع دقائق عن الساعة ، ومستر (X) يتابع فى هدوء مستفز :

ـ لقد أشعلت فتيل القنبلة بالفعل ، عندما أعدت الجزء السفلى إلى موضعه ، ولاتوجد أية وسيلة معروفة لإيقاف عملها .. بل إن محاولة تحريك جهاز الاتصال الآن تكفى لنسفها فوراً .

هتفت مختنقة :

ـ أيها الـ ....

قاطعها فى صرامة :

ـ ارحلى يا (لورا) .. فوراً .

حدّقت فى التوقيت التنازلى لحظة ، قبل أن تختطف حقيبتها الصغيرة ، هاتفة :

ـ سأفعل .. ولكننى لن أنسى هذا أبداً .

ضحك قائلاً :

ـ ستنسين يا (لورا) .. الكل ينسى ، مادام النجاح يحالفنا .

قالها ، وانطلق يضحك ..

ويضحك ..

ويضحك ..

أما هى ، فقد تركت كل شىء خلفها ، واندفعت خارج المكان كله ، وهى تقول لنفسها فى غضب :

ـ ستدفع الثمن يا (X) .. أقسم أن تدفع الثمن ..

نطقتها ، وعقلها يتساءل : كيف ستقتنع (ألنزو) برحيلها المفاجئ هذا ؟!

كيف تبتعد من هنا ، دون أن تثير شكوكه وحفيظته ؟!

ونقلها هذا إلى سؤال آخر ..

سؤال أكثر أهمية ..

وأكثر خطورة ..

تُرى هل ستتحقق خطة (X) بالفعل هذه المرة ؟!

هل أمكنه تقدير الموقف كله ، على نحو صحيح ؟!

وماذا عن مسألة الوقت ؟!

هل سيأتى (أدهم) بالفعل ؟!

وهل سيكون داخل القلعة ، عندما يحدث الانفجار ، الذى سيسحق كل شىء ، وكل شخص ؟!

هل ؟!

وبقى سؤالها بلا جواب .

وبلا ملامح .. على الإطلاق .

* * *



٦ ـ الثعلب ..

اتسعت عينا (هوليا) ، بكل رعب الدنيا ، وهى منكمشة فى ركن زنزانتها الصغيرة ، تحدق فى (رودريجز) الذى راح يتأملها بنظرة ذئب جائع ، وابتسامته المقيتة تملأ وجهه ، مع كلماته التى نطقها بالإنجليزية ، قائلاً :

ـ كلنا فى انتظار قدوم فارسك أيتها الحسناء .

قالت بصوت مرتجف

ـ إننى لم أعرفه إلا منذ ساعات ، ولن يجازف بحياته من أجلى .

اتسعت ابتسامته المقيتة ، وهو يقول :

ـ بل سيفعل .

نطقها بثقة عجيبة ، جعلتها تغمغم :

ـ حقًا ؟!

أومأ برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ هذه نقطة ضعفه الكبرى ، فحتى لو لم يعرفك ، لبذل حياته من أجل إنقاذك .

لم تدر لماذا انتزعت كلماته كل الرعب ، الذى كاد يسيطر على روحها نفسها ، وهى تسترخى إلى حد ما ، قائلة :

ـ هل يمكن أن يفعل ؟!

أجاب بمنتهى الثقة والحزم :

ـ إنها ليست أول مرة .

استعاد عقلها كل ما فعله (أدهم) ، منذ سقطت بهم الطائرة ، فاسترخى جسدها كله ، واعتدلت فى مجلسها ، وحمل صوتها ارتياحها ، وهى تقول :

ـ عظيم .

انعقد حاجباه فى شدة ، وهو ينظر إليها بصرامة مستنكرة ، فتابعت ، وكأنها تتعمد استفزازه :

ـ كل ما علىّ هو انتظاره إذن .

قال فى حدة :

ـ سيصل إليك جثة هامدة .

هزت كتفيها ، قائلة :

ـ أشك .

اندفع نحوها فجأة ، وهوى على وجهها بصفعة قاسية ، جعلتها تطلق صرخة ألم مذعورة ، وهى ترتطم بالجدار ، وهو يصيح فى غضب :

ـ سترين أيتها الحقيرة .. سترين كيف سأحضر لك رأسه ، على طبق من النحاس بعد أن أظفر به .

رمته بنظرة مقت ، وهى تقول :

ـ الشىء الذى أثق به ، هو أنه لن يفعل المثل ، إذا ما ظفر بك .

ثم مالت إلى الأمام ، مستطردة فى حدة :

ـ فلن يتبقى منك عندئذ ، ما يكفى لإحضاره .

احتقن وجهه فى غضب هادر ، وهو يرفع قبضته ، صارخًا :

ـ أيتها الحقيرة .

رفعت ذراعيها لتحمى وجهها ، ولكنه هوى بقبضته على معدتها ، بلكمة قاسية قوية ، جعلتها تطلق شهقة عنيفة ، قبل أن تسقط أرضًا ، وتنفجر بالبكاء ، فانتزع هو مسدسه ، وصوّبه إليها ، صائحًا :

ـ كان ينبغى أن أنسف رأسك الآن .

وبدا لحظة وكأنه سيطلق عليها النار بالفعل، إلا أنه لم يلبث أن تمالك ، وأعاد مسدسه إلى غمده ، مستطردًا فى غضب :

ـ ولكننى سأبقى عليك ، حتى تشاهدى هزيمته أولاً .

بكت (هوليا) فى عنف ، دون أن تنبس ببنت شفة ، واعتدل هو فى صرامة ، وهَمّ بقول شىء ما ، لولا أن دلف أحد جنوده إلى المكان ، قائلاً :

ـ الشقراء تستعد للرحيل .

انعقد حاجبا (رودريجز) ، وهو يلتفت إليه بحركة حادة ، قائلاً فى مزيج من الدهشة والشك :

ـ الآن ؟

أومأ الجندى برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ طائرتها تستعد للإقلاع ، والجنرال يودّعها بنفسه .

ازداد انعقاد حاجبى (رودريجز) ، وهو يغمغم :

ـ عجبًا !

ثم غادر زنزانة (هوليا)، وأغلق بابها خلفه فى إحكام ، وقال للجندى ، الذى لهث وهو يحث الخطى؛ ليلحق به :

ـ هل حدثت مشادة بينها وبين الجنرال ؟!

أجابه الجندى فى سرعة :

ـ لايبدو هذا ، فهما يتبادلان الضحكات والدعابات ، وهو يوصلها إلى الطائرة .

هزّ (رودريجز) رأسه ، قائلاً :

ـ رحيلها المفاجئ هذا ينطوى على سر ما ..

بلغ مدخل القلعة ، فى نفس اللحظة ، التى أقلعت فيها طائرة (لورا) ، وبدا الجنرال مبتسمًا مبتهجًا ، وهو يقول :

ـ سنضاعف قوّاتنا يا عزيزى الكولونيل .. الجميلة (لورا) أقنعت مستر (X) بتزويدنا بثلاث مقاتلات ، من طراز (ف ـ ١٦) ، وعشر دبابات حديثة ، وأكثر من ....

قاطعه (رودريجز) ، متسائلاً فى توتر :

ـ لماذا رحلت فجأة ؟!

حدّق (ألتزو) فيه لحظة ، وكأنما يستنكر منه هذا السلوك ، ثم أجابه فى حدة :

ـ لابد أن تتم الصفقة الآن .. هذه الأمور تحتاج إلى تحركات سريعة .

قال (رودريجز) فى صرامة :

ـ فقط ؟!

صاح فيه الجنرال فى غضب ..

ـ نعم .. فقط يا كولونيل .. فقط .

قالها ، وتركه عائدًا إلى القلعة فى غضب ، ولكن (رودريجز) بقى فى مكانه ، يعيد التفكير فى الأمر مرة ..

وثانية ..

وثالثة ..

ثم فجأة ، هتف بأحد رجاله فى حزم :

ـ اسمع يارجل .. اذهب فورًا إلى حجرة تلك الأمريكية الشقراء ، وانظر هل ....

قبل أن يتمّ عبارته ، هتف أحد مراقبى الأبراج فجأة :

ـ الدبابة عادت .

رفع (رودريجز) رأسه فى حركة حادة ، إلى حيث أشار مراقب البرج ، واختطف منظاره المقرّب فى سرعة ، وتطلع عبره إلى الدبابة ، التى تقترب ..

وتقترب ..

وتقترب ..

وبمنتهى الثقة والاهتمام ، راح يفحص الدبابة القادمة ، فى نفس الوقت الذى انبعث فيه صوت قائد طاقمها ، عبر جهاز الاتصال اللاسلكى ، وهو يقول فى انفعال :

ـ نحن فى مجال رؤيتكم يا رفاق .. هل ترونه ؟! هل يمكنكم رصده فوق الدبابة ؟!

قال (رودريجز) فى توتر ، عبر جهاز الاتصال :

ـ لا يمكننا رصده من هنا .. من المحتمل أنه قد قفز ، قبل وصولكم إلى مجال الرؤية .

أجابه قائد الطاقم فى حدة :

ـ مستحيل ! لقد كنا نسمع وقع قدميه ، حتى دقائق قريبة ، ونحن نرصد ما حولنا طوال الوقت ، ومن المستحيل أن يغادر سطح الدبابة ، دون أن نراه ، أو نشعر بهذا .. مستحيل ! مستحيل ! مستحيل !

تضاعف توتر (رودريجز) ، وهو يعيد فحص الدبابة المقتربة ، عبر منظاره المقرّب ، و ....

وفجأة ، لمح ذلك الجسد ، المختفى فى دقة ، خلف برج الدبابة ..

لمحه بزاوية ، يصعب رصدها ، عندما تتجه الدبابة إلى القلعة ..

لمح قميصه الأبيض ، وسرواله الأزرق ..

وسرى فى جسده توتر أكثر ، وهو يتأكّد مما رصده مرة ..

وثانية ..

وثالثة ..

وبكل انفعاله ، أشار إلى الرجال ، قائلاً :

ـ إنه هو .

سأله أحدهم فى لهفة :

ـ هل تراه يا كولونيل ؟!

أجابه فى حزم منفعل :

ـ مر الرجال بالاستعداد فوق الأسوار .. لا أحد يطلق رصاصة واحدة ، حتى آمرهم بهذا .. هيا .

أسرع الرجل ينقل الأمر ، فى حين عاد (رودريجز) يتابع اقتراب الدبابة عريقة الطراز ، عبر منظاره المقرّب ، وهو يتساءل : أمن الممكن أن يتصرّف (أدهم صبرى) بهذه الجرأة ؟!

أو بهذه الحماقة ؟!

ربما تتقى زاوية عبقرية للاختفاء ، خلف برج الدبابة ، ولكن ما الذى كان يتوقّعه ، عندما تقترب من القلعة ؟!

أى مراقب ، من مستوى مرتفع ، يمكنه رصده بسهولة ، عندما تقترب الدبابة ، إلى مسافة عشرين متراً ..

فما الذى يخطّط له ، عند هذه المسافة ؟!

مرة أخرى ، تأكّد من وجود من يختبئ خلف برج الدبابة ، قبل أن يتراجع بدوره إلى داخل القلعة ، هاتفاً :

ـ استعدوا .

تكرَّر السؤال مرة أخرى فى أعماقه ، وهو يتابع الدبابة بمنظاره ، مع اقترابها أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

« لقد ظفرنا به .. »

نطقها الجنرال (ألنزو) فى انفعال ، وهو يقف إلى جواره ، فوق أسوار القلعة ، ويراقب اقتراب الدبابة بدوره ، فالتفت إليه (رودريجز) ، قائلاً :

ـ لست أظنه غبيًا أو أحمق ، إلى هذا الحد .

أطلق (ألنزو) ضحكة ساخرة ، وهو يقول :

ـ هو أيضًا لا يظن نفسه كذلك ، وإلا لما أتى إلينا بنفسه ، متصورًا أننا لن نلمحه ؛ لمجرَّد أنه انتقى زاوية بارعة ، مع غروب الشمس ، الذى يلقى ظلالاً طويلة ، يمكن أن تخدع الرؤية تمامًا .

تطلَّع (رودريجز) إلى قرص الشمس ، الذى بدأ رحلة الغروب فى الأفق ، وهو يغمغم :

ـ ليس أيضًا بهذه السذاجة .

هزَّ (ألنزو) كتفيه ، ورفع منظاره المقرِّب إلى عينيه ، قائلاً :

ـ كيف تفسِّر هذا إذن .. ألا يعنى أن ..

بتر عبارته دفعة واحدة ، والتقى حاجباه فى شدة ، وهو يقول :

ـ إننى أراه بوضوح الآن .

غمغم (رودريجز) فى عصبية :

ـ إنه يخفى شيئًا ما .

قال (ألنزو) فى سرعة :

ـ سنعرف ذلك الشىء حتمًا .

ثم رفع يده ، ليضيف فى حزم :

ـ ونحن نرفع جثته .

قالها ، ثم خفض يده ، صائحًا فى رجاله :

- أطلقوا النار ..

ومع صيحته ، ارتفعت فوهات مدافع رجاله ..

وانهال وابل الرصاصات على الدبابة ، ذات الدروع القوية ..

وأمام عيون الجميع ، أصابت الرصاصات كلها ذلك الجسد ، الذى يختفى خلف البرج ..

وفى انفعال جارف ، صاح قائد طاقم الدبابة :

- هل أصبتموه يا رفاق ؟! هل اقتنصتموه ؟!

صاح به أحد جنود القلعة فى حماسة :

- رصاصاتنا كلها أصابته يا رجل .. كلها .

صرخ قائد الطاقم فى انفعال ، وهو يقفز إلى عجلة الكوة ، ويديرها فى سرعة ولهفة :

- كنت أعلم هذا .. كنت أعلم أننا سنفعلها .

انعقد حاجبا (رودريجز) فى شدة ، وهو يتطلع عبر منظاره المقرّب ، إلى تلك الجثة ، التى أصابتها الرصاصات ، والتى لم يبد عليها أى أثر للحياة ، و ...

وفجأة ، انتبه إلى الخدعة ..

قفز الأمر كله إلى رأسه دفعة واحدة ..

وارتبطت المعلومات ببعضها ..

وفهم ..

وبكل سرعته وانفعاله ، اختطف جهاز الاتصال اللاسلكى من حزامه ، صائحًا بكل قوته :

- لا .. لا تغادر الدبابة يا رجل .

ولكن قوله تأخّر لثانية ..

ثانية واحدة فحسب ، كان قائد الطاقم قد فتح خلالها كوة برج الدبابة ..

وانفلتت مع فتحها ، تلك القنابل الثلاث ، التى جمعها (أدهم) من جثث القتلى ، وثبتها بمهارة أعلى البرج ..

وداخل الدبابة ، سقطت واحدة من القنابل الثلاث ..

ثم ثانية ..

أما الثالثة ، فقد تدحرجت إلى جانب الدبابة ، وسقطت على الرمال ..

وفى ذهول ، مذعور ، حدق أفراد الطاقم الثلاثة فى القنبلتين الداخليتين ، قبل أن يصرخ القائد :

ـ لا .. مستحيل !!

ومع صرخته ، دوت الانفجارات ..

قنبلتان انفجرتا داخل الدبابة ، وسحقتا طاقمها سحقًا ، ودمرتا كل أجهزتها فى عنف ، لينطلق من قمتها عمود من النيران ، ارتفع لستة أمتار كاملة ، فى نفس اللحظة التى انفجرت فيها القنبلة الثالثة إلى جانبها ، لتثير عاصفة عاتية من الرمال حولها ..

وبكل ذعر الدنيا ، صرخ (ألتزو) :

ـ ماذا حدث ؟! ماذا حدث ؟!

لتدفع جنوده خارج أسوار القلعة ، فى محاولة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه ، على الرغم من النيران ، التى اشتعلت من قمة الدبابة ، فصاح (رودريجز) فى غضب :

ـ لا تقتربوا من الدبابة .. ابتعدوا .. هذا أمر .

صاح فيه (ألتزو) :

ـ بم تأمرهم يا رجل .. إنهم يحاولون إنقاذ رفاقهم .

صرخ (رودريجز) :

ـ هذا ما توقعه هو جيدًا .. هذا ما يريده بالضبط .

صاح الجنرال فى غضب :

ـ لماذا ؟! بم يمكن أن يفيده هذا ؟!

صرخ فيه (رودريجز) ، على الرغم من فارق الرتب بينهما ، وهو يجذبه من سترته :

ـ ألم تفهم بعد يا رجل ؟! ألم تستوعب خدعته ، على الرغم من كل ما حدث ؟! لقد استغل كل شىء لخداعنا ، ودخول قلعتنا ، تحت سمعنا وبصرنا .

دفع (ألنزو) يده بعيدًا ، وهو يقول فى غضب :

ـ مستحيل ! قلعتنا لايمكن أن يدخلها سوى جنودنا .

صاح (رودريجز) :

ـ بالضبط وهو يعرف هذا جيدًا ، لذا فقد خدع أفراد طاقم الدبابة الأغبياء ، واستبدل بثيابه زى أحد جنودنا القتلى ، ثم حمل جثة الجندى ، بعد أن ألبسها ثيابه ، إلى سطح الدبابة ، وكأنه يواجه طاقمًا من العميان .

امتقع وجه الجنرال المكسيكى ، وهو يقول :

ـ أتعنى أن تلك الجثة ، التى أطلقنا عليها رصاصاتنا ، كانت جثة أحد رجالنا ، فى ثوب ذلك المصرى .

لوّح (رودريجز) بذراعيه فى الهواء ، صائحًا فى سخط :

ـ أخيرًا فهمت .. إنها معجزة حقيقية .

بدت حيرة عصبية على وجه (ألنزو) ، على الرغم

من إهانة (رودريجز) الواضحة له ، ولوّح بذراعيه فى توتر ، قائلاً :

ـ ولكن أين كان ؟! إننا لم نر سوى تلك الجثة ، على سطح الدبابة !

هزّ (رودريجز) رأسه فى غضب ، وهو يهتف :

ـ أنت المسئول عن هذا ، بإصرارك على استخدام هذه الدبابات العريقة ، التى يرتفع جسمها لستين سنتيمترًا ، عن مستوى جنازيرها .

صاح (ألنزو) :

ـ وما علاقة هذا بـ ....

بتر عبارته بغتة ، واتسعت عيناه عن آخرهما ، وهو يهتف فى ارتياع :

ـ هل تعنى أنه .. أنه اختفى أسفل الدبابة ؟!

مال (رودريجز) نحوه ، وهو يصيح فى حدة :

ـ بالطبع أيها العبقرى .. ستون سنتيمترًا تكفى

لاختفاء فيل صغير ، وليس مقاتلاً رشيقًا قويًا مثله .. لأمكنك على أنه وجد ألف شيء يمكنه أن يتعلق به أسفلها .

حدّق (ألتزو) فى وجهه لحظة ، فى ذهول وارتياع ، قبل أن يلوّح بيده مرة أخرى ، قائلاً :

- ولكن إحدى القنابل سقطت أرضًا ، وانفجرت إلى جوار الدبابة ، وهذا كافٍ لـ ...

قاطعه (رودريجز) فى حدة :

- ليس لقتله ياجنرال .. لقد اختار زاوية سقوطها بمنتهى العبقرية ، بحيث يحجب عنه جنزير الدبابة موجة التضاغط ، التى ستنشأ من الانفجار ، ولو أنها سقطت أمام الدبابة أو خلفها ، وانفجرت هناك ، لقتله الانفجار حتمًا ، ولكنه لم يكن يريد من الانفجار سوى سحابة الغبار العنيفة ، التى سيثيرها حول الدبابة ، وما سيستتبعه هذا من اندفاع جنودنا إليها ، فى محاولة لإنقاذ رفاقهم ، لكى يزحف هو عندئذ ، من أسفل الدبابة ، ويمتزج بهم ، بالزى الذى استبدله مع أحد قتلانا ..

امتقع وجه الجنرال أكثر وأكثر ، وهو يقول :

- إذن فهو هنا الآن ؟!

جاء دور (رودريجز) ، ليلوّح بذراعيه ، صائحًا بكل غضب الدنيا :

- نعم يا جنرال .. هو هنا الآن .. داخل قلعتنا ، ووسط رجالنا وقواتنا ، ولا أحد يدرى أين هو ، ولا ما الذى يفعله الآن .

ظلّ الجنرال (ألتزو) يحدّق فيه بضع لحظات فى ذهول ، قبل أن ينعقد حاجباه فى شدة ، وهو يقول فى غضب صارم :

- فليكن .. هذا لا يعنى أنه قد انتصر علينا .

كاد (رودريجز) ينفجر فى وجهه ، وهو يلوّح بذراعه ، ويشيح بوجهه فى غضب هادر ، ولكن الجنرال تابع فى ثورة :

- (لورا) قالت : إن الأمر سينتهى بعد أقل من ساعة ، فى كل الأحوال .

استدار إليه (رودريجز) مرة أخرى ، هاتفًا فى توتر :

- هى قالت هذا .

تابع الجنرال ، وكأنه لم يسمعه ، وهو يضم قبضته أمام وجهه فى قوة :

- وسنثبت لها أنها على حق .. سنسحق ذلك المصرى ، قبل مرور نصف الساعة فحسب .

صاح به (رودريجز) :

- ولكن لماذا قالت (لورا) هذا ؟!

مرة أخرى تابع الجنرال ، وكأنه لم يسمعه :

- سننظر إلى الأمر من زاوية جديدة .. إنه لم ينتصر بوصوله إلى هنا ، بل وضع نفسه بين فكى الأسد .. بين أصابع جيشنا القوى كله ..

صاح (رودريجز) ، وكأنما لم يعد يشغله سوى أمر (لورا) :

- لماذا قالت هذا ؟!

صرخ الجنرال (ألنزو) فى وجهه بقوة :

- فلتقل ما تقول .. هذه ليست قضيتنا الآن .

ثم اختطف مكبّر الصوت ، مستطردًا ، وجسده كله يرتجف انفعالاً :

- المهم أن نثبت لذلك المصرى ، أنه قد ارتكب أكبر خطأ فى حياته ، بقدومه إلينا .

عضّ (رودريجز) شفتيه ، بكل غضب الدنيا ، وأدرك فى أعماقه أن مواصلة الحديث مع الجنرال مجرد حماقة ، لا طائل منها ، فتركه ، وانطلق يعدو نحو البرج الأوسط ، حيث حجرة (لورا) ..

كان واثقًا من أن تلك الأمريكية قد تركت شيئًا ما خلفها ..

شيئًا ليس فى صالحهم أبدًا ..

شىء يرتبط حتمًا بعبارتها ، التى أثارت كل القلق فى أعماقه ..

الأمر سينتهى خلال أقل من الساعة ، فى كل الأحوال ..

خلال أقل من الساعة ..

أقل من الساعة ..

ترددت الجملة الأخيرة فى ذهنه ، وهو يواصل عدوه نحو البرج الأوسط ، فى نفس اللحظة التى صاح فيها الجنرال (ألنزو) من خلفه ، عبر المكبِّر الصوتى القوى :

ـ نداء إلى الجميع .. خصمنا المصرى نجح فى التسلُّل إلى هنا .. إنه بينكم .. يرتدى أحد أزيائكم ، ويتحرك وسطكم .. لاتسمحوا له بخداعنا .. كلنا يعرف بعضنا البعض جيِّدًا ، ابحثوا عنه بينكم ، وأطلقوا النار مباشرة ، فور رؤيته .. أريد منكم أن ....

وقبل أن يكمل صيحته ، دوى الانفجار ..

أحد مدفعى الميدان انفجر بمنتهى العنف ، مع ذخيرته المجاورة له ، وانطلقت الشظايا فى كل مكان ، لتطيح بالجنود بلارحمة .. !

ثم انفجرت واحدة من سيارات الجيب ..

وثانية ..

وثالثة ..

وبكل غضب الدنيا ، صرخ (ألنزو) :

ـ ابحثوا عنه .. اقتلوه بأى ثمن .. أى ثمن ..

وعلى الرغم من سماعه للصرخة ، التى انطلقت عبر المكبِّر الصوتى القوى ، لم يتوقَّف (رودريجز) لحظة واحدة ، وهو يواصل عدوه نحو حجرة (لورا) ، وإن هتف فى غضب ساخط :

ـ زنزانة الروسية الحسناء ، أيها الجنرال الأحمق .. أرسلهم إلى زنزانة الروسية الحسناء .. هذا هو الهدف ، الذى يسعى إليه المصرى .. إنك تواجه ثعلبًا ، فلتكن أكثر براعة منه .

نطق الجزء الأخير من عبارته ، وهوى يقتحم حجرة (لورا) ، و ....

واتسعت عيناه عن آخرهما ، وهو يحدّق فى شاشة جهاز الاتصال ، التى لم تحمل سوى ذلك التوقيت التنازلى ، الذى ينخفض فى سرعة ..

وكخبير متفجرات سابق ، فى الجيش المكسيكى ، أدرك (رودريجز) ، من النظرة الأولى ، أنه أمام قنبلة موقوتة ، تستعد للانفجار بعد سبع دقائق وثلاث ثوان ، كما يقول توقيتها التنازلى ..

الانفجار الذى سيسحق معه كل شىء ..

وكل شخص ..

بلا استثناء ..

* * *



٧ ـ الدقائق الأخيرة ..

ارتفع حاجبا دون (باتشينو) ، زعيم عائلات (المافيا) ، فى (واشنطن) و(فرجينيا) ، فى دهشة بالغة ، وهو يحدّق فى دونا (كارولينا) ، التى فوجئ بدخولها إلى مكتبه ، وهى تقول :

ـ دون .. أحتاج إلى استشارتك ، فى أمر مهم للغاية .

نهض (باتشينو) فى صعوبة ، صنعتها سنوات عمره ، التى جاوزت الثمانين ، وصافحها بأصابع مرتجفة ، وهو يقول :

ـ مرحبًا بك أولاً يا دونا ، واعذرينى لو تساءلت : كيف أمكنك الوصول إلى مكتبى ، دون أن يخطرنى أحد رجالى بقدومك ؟!

قالت فى توتر :

ـ ربما لم يتصورْ أحدهم أن القواعد يمكن أن تسرى ، على زعيمة كل العائلات .

ابتسم ابتسامة باهتة ، وهو يقول :

ـ القواعد هى القواعد يا دونا ، ولولاها لما بقيت عائلاتنا ، حتى هذا الزمن .

ساعدته على العودة إلى مقعده ، وجلست على المقعد المقابل ، وأشعلت سيجارتها ، قائلة :

ـ خطأ يا دون (باتشينو) .. لو راجعت معى تاريخ العائلة ، الذى عاصرته بنفسك ، أيام زعامة والدى ، لأدركت أن (المافيا) أمكنها البقاء ، لأنها غيّرت قواعدها ، عندما استلزمت الأمور هذا .

سألها فى حذر :

ـ وكيف يا دونا ؟!

أجابته ، وهى تنفث دخان سيجارتها فى قوة :

ـ هل تذكر أيام ظهر ذلك اليونانى ، الذى قرّر السيطرة على تجارة المخدرات ؟!

سعل الرجل فى قوة ، قبل أن يقول :

ـ ذاكرتى تضعف كثيرًا يادونا ، مع رائحة التبغ المحترق .

فهمت ما يعنيه ، فأطفأت سيجارتها فى عصبية ، وهى تتابع :

ـ أيامها قال والدى : إنه من الخطأ أن تتورّط (المافيا) فى تجارة قذرة كتجارة المخدرات ؛ لأنها نظام يعتمد على تماسك وترابط العائلات ، ولا يصح أن تتورّط فى تجارة ، تعتمد على إفساد الشباب والأطفال .

ابتسم (باتشينو) ، وهو يتراجع فى مقعده ، قائلاً :

ـ أيامها دبّر ذلك اليونانى خطة لاغتيال والدك .

قالت فى حزم :

ـ ونجا أبى من الموت بأعجوبة ، وقتل (مايكل) ذلك اليونانى ، مع رئيس الشرطة أيامها ، وانتقم لمحاولة اغتيال أبى ..

ومالت نحوه ، مستطردة :

ـ ثم ماذا حدث بعدها ؟!

قلب (باتشينو) كفيه ، قائلاً :

ـ بدأت العائلة عملها فى تجارة المخدرات .

أشارت إليه ، قائلة فى حزم :

ـ وتغيّرت القواعد ؛ لأن الحياة تحتم هذا .

تنهّد ، قائلاً :

ـ أنت على حق يادونا ، ولكن الأمور فى الماضى كانت تختلف .

قالت فى حزم أكثر :

ـ فى السنوات الأخيرة أيضًا ، وبعد زعامتى للمنظمة ، وصدور مجموعة القوانين المنظمة للتعامل بالنقد ، مع الحرب التى شنتها الحكومة ، على عمليات غسيل الأموال ، غيرنا القواعد كلها مرة أخرى ، وانتقلنا من الأعمال غير المشروعة ، إلى المشروعات الاستثمارية

الضخمة ، ونجحنا فى إدارتها ، بوساطة أطقم الخبراء الذين استعنا بهم ، ومعظمهم من خارج العائلة .. أمريكيون ، وألمان ، وحتى يابانيون ..

ومالت نحوه أكثر ، مضيفة :

ـ القواعد تتغيّر دومًا يادون ، حتى تبقى العائلة على القمة .

تطلّع إليها طويلاً فى صمت هذه المرة ، قبل أن يسألها فى بطء :

ـ ما القواعد التى تريدين تغييرها هذه المرة يادونا ؟!

صمتت فترة طويلة أيضًا بدورها ، قبل أن تجيب فى صرامة :

ـ القواعد الرئيسية .

انعقد حاجباه فى شدة ، وهو يتطلّع إليها ، متسائلاً :

ـ أية قواعد تعنين يا دونا .

كرّرت فى صرامة أكثر :

ـ القواعد الرئيسية يا دون .

ازدرد لعابه فى صعوبة ، وهو يتمتم :

ـ حديثك يخيفنى اليوم يا دونا .

تراجعت فى مقعدها ، قائلة :

ـ وسيخيفك أكثر ، عندما تسمع التفاصيل .

اتسعت عيناه لحظة فى ارتياع ، قبل أن يسعل ، ويميل نحوها ، متسائلاً فى قلق بلا حدود :

ـ ماذا لديك بالضبط يا دونا ؟!

انفرجت شفتاها ، على نحو يوحى بأنها ستخبره بكل التفاصيل ، إلا أن هاتفها المحمول انطلق فجأة ، فالتقطته ، قائلة :

ـ ما الجديد لديك يا (كارلو) ؟!

أتاها صوت مساعدها الأول ، وهو يقول :

ـ دونا .. ذلك المكسيكى الذى استأجرناه ، يقول : إن الاقتراب من القلعة مستحيل ؛ بسبب طبيعة الأرض هناك ، ولكنه استخدم بعض المناظير المقرّبة القوية ، ويقول : إنه هناك انفجارات عنيفة داخل القلعة .

انتقل انفعالها إلى صوتها ، وهى تقول :

ـ هذا يعنى أن (أدهم) مازال بخير .

قال فى تردد :

ـ ربما كانت مجرد .....

قاطعته فى صرامة :

ـ إنه هو .

صمت لحظة ، قبل أن يقول :

ـ ولكن هذا يعنى أيضًا أن القتال قد بلغ ذروته ، ومازالت أمامنا أربع ساعات ، قبل أن نصل إلى هناك .

انعقد حاجباها فى شدة ، وهى تقول فى عصبية :

ـ إننا نفعل ما بوسعنا ، وربما يفعلها هو ، قبل أن نصل إليه .

تردد (كارلو) أكثر ، ثم قال :

ـ إنه مجرد رجل واحد ، فى مواجهة جيش كامل يا دونا .

صاحت فى غضب :

ـ من نتحدث عنه ليس مجرّد رجل واحد ..

وصمتت لحظة ، ثم أضافت فى حدة :

ـ إنه جيش .. جيش فى مواجهة جيش .

غمغم (كارلو) :

ـ بالطبع يا دونا .. بالطبع .

قالت فى صرامة شديدة :

ـ واصل متابعة الموقف ، وأبلغنى التطورات ، أولاً فأولاً .

غمغم :

ـ سأفعل يا دونا .

أنهت المحادثة فى عصبية واضحة ، فتطلّع إليها (باتشينو) بضع لحظات ، قبل أن يقول :

ـ ها هى ذى قاعدة أخرى تتحطّم يا دونا .

تساءلت بنفس العصبية :

ـ أية قاعدة ؟!

تطلّع إلى عينيها مباشرة ، وهو يقول :

ـ أنت غارقة فى حب ذلك المصرى حتى النخاع .

أدرك على الفور أنه قد أصاب الهدف بدقة ، مع اختلاجة جفونها ، وارتعاشة شفتيها ، على الرغم من محاولتها السيطرة على تماسكها ، وهى تجيب :

ـ ما من امرأة يمكنها مقاومته .

وصمتت لحظة ، ثم أضافت فى حزم :

ـ ولكننى لست مجرّد امرأة .. إننى الزعيمة الروحية لمنظمات (المافيا) ، واكتسى صوتها بصرامة شديدة ، وهى تضيف :

ـ ولست أنوى التخلّى عن هذا اللقب أبدًا .

تنهّد دون (باتشينو) مرة أخرى ، وسألها فى حزم:

ـ ما الذى أتيت لتطرحيه الليلة يا دونا ؟!

رمقته بنظرة صامتة ، استغرقت دقيقة كاملة ، قبل أن تقول ، بكل صرامة الدنيا :

- أتيت لأقلب الأمور كلها رأسًا على عقب يا دون .

ثم مالت نحوه ، وراحت تشرح له ما لديها ..

واتسعت عينا أكبر زعماء (المافيا) عمرًا ، وقلبه يكاد يتوقف بين ضلوعه ، من هول ما يسمعه ..

فلقد كانت دونا على حق تمامًا ..

إنها ستشعل الدنيا كلها ..

وستقلب كل الأمور رأسًا على عقب ..

ستقلبها على رءوس الكل ..

بلا استثناء ..

بلا هوادة ..

وبلا رحمة ..

على الإطلاق ..

* * *

بمنتهى العنف ، خفق قلب (رودريجز) ، خبير المتفجرات السابق ، فى الجيش المكسيكى ، وهو يقترب من تلك القنبلة الموقوته ، فى جهاز الاتصال الخاص بـ (لورا) ..

وبأصابع حذرة ، راح يتحسّسه ..

ويدرسه ..

ويحاول فهم طريقة عمله ..

ولقد أضاع هذا عليه نصف دقيقة كاملة ..

ثلاثون ثانية ، قبل أن يدرك ويستوعب حقيقة الموقف كله ..

أنه أمام قنبلة رهيبة ، ستنفجر بعد ست دقائق ، وسبع وعشرين ثانية ..

قنبلة تكفى لسحق المكان كله سحقًا ..

بكل ما فيه ..

ومن فيه ..



خفق قلب (رودريجز) خبير المتفجرات السابق ، في الجيش المكسيكي ، وهو يقترب من تلك القنبلة الموقوتة ..

ولأنه خبير فى هذا المضمار ، فقد أدرك أن أية محاولة لتحريك هذه القنبلة ، أو إيقاف مفعولها ، ستؤدى إلى انفجارها فوراً ..

وبكل غضب الدنيا ، اعتدل هاتفاً :

- يا للأمريكية الحقيرة !!

تمنى لحظتها لو أمكنه أن يقبض على عنق (لورا كيلرمان) بأصابعه ، فلا يتركها إلا وهى جثة هامدة ..

وتمنى أكثر لو عرف من هو زعيمها مستر (X) هذا ..

من يكون !

وأين يمكن العثور عليه !!

ومن خارج المكان ، سمع دوى الانفجارات ، وصرخات الجنرال (ألنزو) على مكبِّر الصوت ، وهو يدعو الرجال للتماسك ، والبحث عن (أدهم صبرى) فى كل مكان ، فغمغم فى سخط :

ـ فات الوقت أيها الجنرال الأحمق .. لو أن لديك أية خبرات عسكرية حقيقية ، لأدركت أن الغرض الحقيقى ، من كل هذه الانفجارات ، هو تشتيت انتباهك ، وانتباه قواتك حتى يتمكن من بلوغ زنزانة الروسية الحسناء ، وتحريرها .

ألقى نظرة أخرى على المؤقت التنازلى ، الذى أشار إلى خمس دقائق ، وست وأربعين ثانية قبل الانفجار ، ثم سحب مسدسه ، هاتفًا فى حنق :

ـ لابد من الابتعاد بأقصى سرعة ، ولكن لو تبقت لدى دقيقة واحدة ، فسأقتلك أيها الجنرال المأفون ، الذى لايصلح إلا كعاشق للنساء ، و ....

بتر عبارته دفعة واحدة ، وانعقد حاجباه أكثر ، قبل أن يندفع خارج المكان ، صائحًا :

ـ بل سأقتله هو .. سأقتل (أدهم) .. (أدهم صبرى) ..

فى نفس اللحظة ، التى أطلق فيها صيحته ، كانت (هوليا) تتعلق بقضبان نافذة زنزانتها الصغيرة فى رعب ، مع دوى الانفجارات العنيفة ، الذى يصم آذانها ..

وكان قلبها يخفق فى قوة ..

بمنتهى القوة ..

فما يحدث كان يؤكد أن (أدهم) هنا ..

داخل القلعة ..

لقد فعلها بقدراته المذهلة ..

اخترق كل الحواجز والعقبات ..

وفعلها ..

وياله من رجل

وبكل لهفتها ، هتفت :

ـ هيا .. أسرع .. أخرجنى من هذا الجحيم .

برز جندى الحراسة ، ليصيح بها فى عصبية ، وهو يلوّح بمدفعه الآلى :

ـ اصمتى يا امرأة ، أو تحدثى بالأسبانية .

صاحت به ، وهى تتراجع أمام مدفعه فى خوف :

ـ لست أفهم ما تقول .. أقسم إننى ..

قبل أن يتم عبارته ، امتدت يد قوية ، تقبض فجأة على عنق الحارس ، ثم تنتزعه من مكانه بمنتهى العنف ، وسمعته (هوليا) يطلق شهقة قوية ، ثم سمعت دوى رصاصات تنطلق ، مع صوت ضربة مكتومة ، طار بعدها جسد الحارس عبر المكان ، ليرتطم بقضبان الزنزانة فى قوة ، ثم يرتد فى عنف فى نفس اللحظة التى ظهر فيها (أدهم) ، فى زى جنود (ألنزو) ، ليلكمه لكمة أخرى فى أنفه ، سقط الرجل بعدها فاقد الوعى ..

ولثوان ، حدقت (هوليا) فى (أدهم) بمنتهى الذهول ، وهو ينحنى لالتقاط مفاتيح الزنزانة ، من حزام الحارس ، ثم لم تلبث أن هتفت بفرحة طاغية ، عندما اعتدل ليفتح زنزانتها :

ـ كنت أعلم أنك ستأتى .. كنت واثقة من أنك لن تتخلّى عنى أبدًا .

أرادت أن تندفع لتتعلّق بعنقه ، وتلقى نفسها بين ذراعيه ، تعبيرًا عن امتنانها لما فعل من أجلها ، ولكنه استوقفها براحته ، على امتداد ذراعه ، وهو يسألها فى اهتمام :

ـ أأنت بخير ؟!

هتفت فى سعادة :

ـ بالتأكيد ، مادمت قد أنقذتنى من هذا الجحيم .

أجابها فى حزم ، وهو يجذبها خارج الزنزانة :

ـ الأمر لم ينته بعد .. مازلنا داخل قلعتهم .

هتفت ، وهى تتبعه فى حماسة :

ـ ولكنك نجحت فى الدخول .. أليس كذلك ؟!

قال بنفس الحزم :

- الدخول ليس مشكلة .. المشكلة كلها تكمن فى الخروج .

هتفت :

- الدخول ليس مشكلة ؟! أىّ قول هذا ؟!

بلغا أسفل المبنى فتوقّف يستطلع الأمر ، وهو يقول :

- الانفجارات التى صنعتها فى الساحة ، ساعدت على تشتيت انتباههم ، وبث الارتباك والفوضى فى صفوفهم ، ولم يكن من الصعب أن أحطم أسنان أحدهم ، ليقودنى إلى هنا ، أما الخروج ، فهو قضية أكثر صعوبة .

قالت فى لهفة :

- ولكن لديك خطة بالتأكيد .

تنهّد ، وهزّ رأسه ، مجيبًا :

- مطلقًا .

حدّقت فى وجهه ، هاتفة فى ذعر وارتياع :

- مطلقًا ؟! ماذا تعنى ؟! أليست لديك خطة للخروج من هنا ؟!

صمت لحظة ، وهو يتطلّع إلى ساحة القلعة ، عبر فرجة الباب ، قبل أن يقول :

- ليست هناك سوى وسيلة واحدة .

سألته فى لهفة :

- وما هى ؟!

أشار إلى المبنى المقابل عبر الساحة ، وقال :

- الشمس غربت بالفعل ، وهناك يوجد مولّد الكهرباء الرئيسى للمكان ، ولو أمكننى عبور الساحة ، متخفيًا بزيهم هذا ، وقمت بنسف المولّد الرئيسى ، سيعمّ الظلام ، وتسود الفوضى ، وسيمكننا عندئذ أن نستقل (الجيب) الوحيدة المتبقية ، لننطلق من هنا .

قالت فى عصبية :

ـ إلى قلب الصحراء ؟!

سألها فى صرامة :

ـ ألديك وسيلة أخرى ؟!

هزت رأسها نفيًا فى مرارة ، وقالت :

ـ كلاً ، ولكن هذا يبدو لى أشبه بالفرار من جحيم إلى آخر .

قال فى هدوء :

ـ بسيارة (جيب) ، ربما تكون لدينا فرصة أفضل .

غمغمت فى استسلام :

ـ ربما .

قالتها ، ثم أمسكت ذراعه فجأة ، قائلة :

ـ ولو نجحنا فى الخروج من هذه الأزمة ..

توقفت بغتة فى حرج ، فالتفت إليها متسائلاً :

ـ ماذا سيحدث عندئذ ؟!

ازداد وجهها حمرة ، من فرط الخجل ، وهى تقول :

ـ هل يمكن أن تدعونى إلى العشاء ، فى مكان ما ؟!

تطلّع إليها بدهشة حقيقية ، قبل أن يهزّ رأسه ، مغمغمًا بالعربية :

ـ يا للنساء !

سألته فى لهفة :

ـ ماذا تقول ؟!

استدار إليها ، ليشرح لها بالروسية ما قاله ، و...

ولكن استدارته لم تكتمل ..

فمع استدارته ، دوى الانفجار بغتة ..

قنبلة يدوية محدودة ، نسفت باب المبنى ، ودفعته

مع (هوليا) إلى الداخل فى عنف ، ليرتطما بالجدار فى قوة ، ثم يسقطا أمامه ، فى نفس اللحظة التى برز فيها (رودريجز) ، مع فريق من رجاله ، وكلهم يصوبون أسلحتهم إليها ، وهذا الأخير يقول ، بكل ظفر وزهو ، وشماتة الدنيا :

ـ خسرت أيها المصرى .. أخيرًا .

وهوى قلب (هوليا) بين قدميها ..

كالحجر .

* * *



٨ ـ الانفجار ..

انطلق أذان الفجر ، من ذلك الجامع الكبير ، فى قلب مبنى المخابرات العامة المصرية ، وتردد فى المكان كله ، مع هدوء الليل وسكونه ، ففرك مدير المخابرات عينيه ، وهو يجلس على رأس مائدة الاجتماعات الرئيسية ، وتراجع فى مقعده ، قائلاً :

ـ هيا يا رجال .. لا ينبغى أن تفوتنا صلاة الفجر .

كان الإرهاق يبدو واضحًا على وجوههم ، بعد اجتماع دام أكثر من سبع ساعات متصلة ، ولكنهم نهضوا فى صمت ، و ....

وفجأة ، اندفع مسئول الاتصالات إلى المكان ، وهو يلوّح بورقة فى يده ، هاتفًا فى انفعال :

ـ معلومات جديدة من (المكسيك) .

التقط المدير الورقة من يده ، وطالعها فى سرعة ، قائلاً :

- المراقب التابع لدونا (كارولينا) ، يؤكد وجود قتال عنيف ، مع انفجارات قوية ، داخل قلعة الجنرال (ألتزو) .

تبادل الرجال همهمة خافتة ، قبل أن يقول أحدهم فى حزم :

- إنه سيادة العميد (أدهم) بالتأكيد .

وافقه المدير بإيماءة من رأسه ، قائلاً :

- ومن سواه ، يمكنه أن يحيل الصحراء إلى ساحة حرب طاحنة .

قال أحد الرجال فى توتر :

- ولكن هذا يعنى أنه داخل القلعة .

وأضاف آخر فى قلق :

- وسط (ألتزو) وجيشه .

وأكمل ثالث :

- ويقاتلهم جميعًا فى عنف .

انعقد حاجبا المدير ، وهو يقول :

- لست أدرى كيف يفعل (ن ــ ١) هذا ، ولكنه يجد وسيلة ما دومًا .

تبادل الرجال نظرة صامتة ، قبل أن يتمتم أحدهم :

- أخشى أنه ليس فى كل مرة تسلم الجرة ..

ازداد انعقاد حاجبى المدير ، وهو يغمغم :

- من يدرى ؟!

ثم التفت إلى مساعده ، يسأله :

- متى سيصل رجال (كارولينا) تقريبًا ؟!

أجابه الرجل فى سرعة :

- ليس قبل ثلاث ساعات ونصف الساعة .

مطَّ المدير شفتيه ، قائلاً :

- فى مثل هذه الظروف ، يمكنك أن تنسى أمرهم تمامًا ، فموقف كالذى تصفه هذه الأوراق ، لا يمكن أن ينتظر لربع ساعة أخرى ، وليس لثلاث ساعات ونصف الساعة .

قال رجل مخابرات فى مرارة :

ـ أيعنى هذا أن كل ما فعلناه ، كان بلا طائل .

قلب المدير كفيه ، قائلاً :

ـ على المرء أن يسعى ، وليس عليه إدراك النجاح .

تبادل الرجال نظرة صامتة أخرى ، ثم قال أحدهم فى أسف :

ـ أخشى أن الموقف ليس فى صالح سيادة العميد (أدهم) هذه المرة .

غمغم آخر :

ـ للأسف .

قاوم المدير انفعاله ، وهو يشد قامته ، قائلاً فى حزم :

ـ هل تعرفون أفضل ما ينبغى أن نفعله الآن ؟!

ارتفعت العيون كلها فى تساؤل ، فتابع بحزم أكبر :

ـ أن نؤدى صلاة الفجر .

وكان على حق تمامًا ..

فهذا أفضل ما يمكنهم فعله ..

وكل ما يمكنهم فعله ..

* * *

ثلاث دقائق كاملة ، خيم الصمت التام ، على حجرة دون (باتشينو) ، فى قصره فى (واشنطن) ..

وطوال تلك الدقائق الثلاث ، كان يحدق فى وجه دونا (كارولينا) ، التى انتهت من شرح ما لديها ، وتراجعت فى مقعدها ، فى انتظار جوابه ..

ولأن دونا تعرف طبيعته جيدًا ، منذ كان صديقًا لوالدها فى طفولتها ، فقد لاذت بالصمت التام بدورها ، وتركته يدرس الموقف ، ويديره فى رأسه العجوز مرات ومرات .. ومرات ..

وفى النهاية ، تراجع دون (باتشينو) بدوره فى مقعده ، قائلاً :

ـ أنت مجنونة يا دونا .. مجنونة تمامًا .

لم تعلّق على عبارته ..

لم تعترض ..

أو تستنكر ..

بل ولم تغضب ..

فقط واصلت صمتها ، وهى تتطلّع إليه فى هدوء ، حتى ابتسم ، مضيفًا :

ـ ولكن أسلوب تفكيرك يروق لى تمامًا .

وهنا اعتدلت ، لتسأله فى اهتمام :

ـ أيعنى هذا أنك معى ؟!

لوّح بيده ، قائلاً :

ـ إنه لا يعنى شيئًا ، حتى هذه اللحظة .

ومطّ شفتيه ، قبل أن يضيف :

ـ ما تنوين فعله سيثير حفيظة الكل بلا استثناء .

قالت فى هدوء :

ـ بل سيثير جنونهم .

عاد يمطّ شفتيه ، قائلاً :

ـ ربما كان هذا هو التعبير الأكثر دقة .

ثم انعقد حاجباه ، مع استطرادته :

ـ ولكن الحرب ستشتعل بلا هوادة .

تنهّدت ، قائلة :

ـ الحرب ستشتعل فى كل الأحوال يا دون .. كل شىء يؤكد أنها كانت مستعدة للاشتعال فى أية لحظة .. عديد من زعماء العائلات كانوا يعلمون هذا ، ويعرفون جيّدًا أن (جوماتى) الحقير يسعى للقب ، ولكن أحدهم لم يحرّك ساكنًا لمنعه من هذا ؛ بل ولم يحاول أحدهم حتى تحذيرى مما يحدث ، وكأنهم يوافقونه فيما ذهب إليه .

لوّح بسبّابته فى وجهها ، قائلاً فى صرامة :

ـ لقد قتلت (جوماتى) ، دون الرجوع إلى مجلس العائلات يا دونا ، ودون حتى طرح الاتهام على الجميع ، وهذا يخالف كل القواعد ، وبشدة .

تراجعت مرة أخرى فى مقعدها ، قائلة :

ـ حقًا ؟! لماذا لم يعترض أحدهم إذن ؟! لماذا صمتوا على ما فعلته به ؟!

قال محذرًا :

ـ الرمال الناعمة لا تظهر خطورتها على السطح يا دونا .

مالت نحوه بحركة حادة ، قائلة فى صرامة :

ـ وهذا ما أقصده بالضبط .. إنهم لم يعترضوا علانية ، لأنهم يدبرون أمرًا ما خفية .

قال فى حدة :

ـ وأنت تسعين لاستثارة غضبهم أكثر ، فى ظل هذه الظروف .

كررت فى حزم :

ـ ليس غضبهم ، وإنما جنونهم .

ثم لوّحت بكفها ، مستطردة :

ـ فالجنون يعمى المرء ، ويفقده صوابه واتزانه ، وقدرته على تقييم الأمور ، واتخاذ الخطوات المناسبة ، فى الوقت المناسب ، وهذا أفضل ما تضع فيه خصمك ، عندما تنوى القضاء عليه تمامًا .

عاد يلوّح بسبابته ، قائلاً :

ـ أمر خطير ... خطير للغاية يا دونا .

تراجعت فى مقعدها كعادتها ، وهى تقول فى صرامة جافة :

ـ أعلم هذا يا دون ، ولكننى لم آت لإضاعة الوقت ، فى محاولات نصح عقيمة .

قال فى توتر :

ـ قلت : إنك تريدين استشارتى .

قالت فى برود :

ـ لم يكن هذا ما قصدته بالضبط .

سألها فى عصبية :

ـ ماذا قصدت إذن ؟!

تطلّعت إلى عينيه مباشرة ، وهى تجيب بنفس البرود :

ـ أردت فقط أن أسألك : أأنت معى أم لا ، ففى حرب كهذه ، لايمكننى تقسيم الكل إلا إلى قسمين فحسب .. أصدقاء أو أعداء ، ففى أية خانة ترغب فى أن تسجل اسمك ؟!

حدّق فيها لحظة ، بشىء من الارتياع ، قبل أن يجيب فى حزم :

ـ خانة الأصدقاء بالطبع يا دونا .. كما كنت دائمًا .

نهضت قائلة :

ـ عظيم .

واتجهت نحو الباب مباشرة ، وهى تضيف ، دون أن تلتفت إليه .

ـ سأتصل بك ، عندما تحين اللحظة .

غمغم :

ـ بكل تأكيد يا دونا .. بكل تأكيد .

لم تكد تغلق الباب خلفها ، حتى تمتم فى مقت :

ـ إنها مجنونة بحق .

وأرهف سمعه ؛ ليتابع وقع قدميها ، وهى تبتعد عبر ممر القصر الطويل ، قبل أن يلتقط سماعة هاتفه الخاص ، متابعًا :

ـ وستشعل حربًا ، لا نهاية لها .

أما دونا (كارولينا) ، فقد واصلت سيرها بنفس الهدوء ، حتى غادرت قصره ، وبلغت إلى سيارتها ، وأغلقت بابها خلفها ، لتسأل سائقها فى اهتمام وهى تشعل سيجارتها :

ـ هل يعمل جهاز التنصّت بكفاءة ؟!

ضمّ السائق سبّابته وإبهامه ، وهو يلوّح بيده ، قائلاً :

ـ بمنتهى الكفاءة .

سألته ، وهى تسترخى فى مقعدها :

ـ هل بدأ فى إجراء اتصالاته ؟!

أجابها مبتسمًا :

ـ فور خروجك يا دونا .

نفثت دخان سيجارتها ، وهى تقول :

ـ عظيم .. دعنا نستمع إلى عرض الليلة إذن .

انطلق السائق بالسيارة ، وهو يضغط زراً صغيراً ، فانبعث داخلها صوت دون (باتشينو) ، وهو ينقل حديثها معه إلى زعماء العائلات ، واسترخت هى فى مقعدها أكثر ، وهى تتمتم :

ـ كل شىء يسير وفقاً للخطة .

وأسبلت جفنيها ، وشفتاها ترسمان ابتسامة كبيرة ..

ابتسامة ظافرة ..

وواثقة ..

للغاية ..

* * *

احتبست صرخة رعب هائلة ، فى حلق (موليا) ، وهى تحدق فى (رودريجز) ، الذى تألقت عيناه ، فى ظفر وحشى عجيب ، وهو يتطلع إليهما ، فى حين

نهض (أدهم) فى هدوء مدهش ، لايتناسب أبداً مع الموقف ، وهو يقول :

ـ تأخرت فى إطلاق النار يا هذا .. معظم من واجهتهم ارتكبوا الخطأ نفسه ، ثم لم يجدوا فرصة ثانية ، لتلافى الخطأ الأول .

قال (رودريجز) فى خشونة :

ـ لقد انتهى أمرك أيها المصرى ، وسخريتك المتحذلقة هذه ، لن تغيّر من مصيرك شيئاً .

قال (أدهم) فى سخرية ، وهو ينفض الغبار عن ثيابه :

ـ وهل تعتقد أن وقاحتك ستفعل ؟!

انعقد حاجبا (رودريجز) ، وهو يقول فى حدة :

ـ ما الذى تحاول فعله بالضبط أيها المصرى ؟!

هزّ (أدهم) كتفيه بلا مبالاة ، وقال :

ـ الخطة الأزلية يا رجل .. أحاول أن أثير غضبك ،

وأفقدك صوابك ، حتى تقدم على فعل أخرق ، يمنحنى الفرصة للخروج من هذا الموقف .

صاح فيه (رودريجز) فى غضب :

ـ ستكون أحمق بحق ، لو تصوَّرت أنه بإمكانك هذا .

عاد (أدهم) يهز كتفيه ، وهو يقول فى سخرية :

ـ من يدرى ؟!

لم تفهم (هوليا) حديثهما ، الذى يتبادلانه بالأسبانية ، ولكنها نقلت بصرها بينهما فى ذهول تام وحيرة بلاحدود ..

فـ (رودريجز) ، الذى يفترض كونه فى الموقف الأكثر قوة ، مع تلك السلاح القوى فى يده ، والجنود المحيطين به ، يبدو شديد التوتر والعصبية ، على عكس (أدهم) ، الذى يبدو ساخرًا لامباليًا ، وكأنه هو المنتصر ، فى هذا الموقف الرهيب ..

ولم تتمكَّن (هوليا) من فهم هذا ..

لم تتمكَّن أبدًا ..

وربما لو كانا يتحدثان الروسية ، لما اختلف الأمر كثيرًا ..

فلقد احتقن وجه (رودريجز) فى شدة ، وهو يتراجع خطوة إلى الخلف ، ويلوِّح بيده ، قائلاً فى حدة :

ـ فليكن أيها المتحذلق المصرى .. لن أضيع الوقت فى مجادلتك العقيمة هذه ، فالقنبلة ستنفجر ، بعد أقل من دقيقتين ، لتنسف المكان كله نسفًا ، و ....

ارتسم الذعر على وجوه جنوده ، مع قوله هذا ، فى حين تألقت عينا (أدهم) وهو يقول :

ـ القنبلة ؟! هل قلت : إن قنبلة ستنفجر ، لتنسف القلعة كلها ؟!

ثم رفع عينيه إلى الجنود ، مضيفًا فى لهجة خاصة :

ـ بعد أقل من دقيقتين .

أدرك (رودريجز) الخطأ الذى وقع فيه ، عندما أصيب جنوده بذعر هائل ، جعلهم يتخلون عنه ، ويعدون مبتعدين ، وهم يصرخون :

ـ قنبلة .. قنبلة ستنسف المكان كله . بعد أقل من دقيقتين .

سمع الباقون صراخهم ، فدبّت فى المكان موجة هائلة من الذعر ، جعلت الكل يعدو فى كل اتجاه ، محاولاً الفرار بحياته ، فصاح بهم الجنرال (ألنزو) ، وهو يعترض طريقهم ، محاولاً منعهم من مغادرة القلعة :

ـ تراجعوا .. هذا أمر .. لن تغادروا القلعة إلا على جثتى .

ولكن الموقف لم يكن يحتمل تصرفه هذا أبدًا ..

فالانفجارات السابقة ، والتوتر الذى ملأ النفوس ، بسبب هزيمة نصف الجيش ، أمام رجل واحد ، وصرخات جنود (رودريجز) ، كلها تضافرت لتلقى الرعب فى قلوب الجميع ..

والرعب يذهب العقل ..

ويزرع الحماقة ..

كل الحماقة ..

لذا ، فقد حقق الجنود لجنرالهم ماطلبه تمامًا ..

لقد دفعوه أمامهم ، وهم يقاتلون للفرار من المكان ، وهو يصرخ :

ـ تراجعوا .. تراجعوا .. هذا أمر ..

ولكن تدافعهم كان أعنف وأقوى مما تصوّر ..

بل ومن كل ما يلقيه من أوامر ..

وسقط الجنرال ..

سقط تحت أقدام جنوده ، التى وطأته دون أدنى رحمة أو شفقة ..

وصرخ الجنرال المكسيكى المنشق ..

وصرخ ..

وصرخ ..

ثم تلاشت صرخاته ..

وتوقفت ..

فقد عبر الجنود أبواب القلعة ، وفروا منها ..

على جثته ..

وبكل غضبه وثورته ، رفع (رودريجز) فوهة مدفعه الآلى ، فى وجه (أدهم) صارخًا :

- أرأيت ما فعلته ؟! أرأيت الفوضى التى تصنعها ، فى كل موقف تواجهه ؟!

ثم ارتفعت صرخته أكثر :

- هيا اذهب إلى الجحيم ، لتثير فيه كل فوضى الدنيا .

صرخت (هوليا) برعب هائل ، عندما ضغط زناد مدفعه ، ليطلق رصاصاته نحو (أدهم) مباشرة ..

وللحظة ، تصورت أن رصاصاته قد أصابت هدفها ..

ثم انتبهت فجأة إلى أن الهدف لم يعد فى موضعه ..

لقد كانت عينا (أدهم) تراقبان سبابة (رودريجز) بمنتهى الدقة ، فلم تكد تتحرك ؛ لاعتصار زناد مدفعه الآلى ، حتى تحرك (أدهم) بسرعة خرافية ..

كان مصابًا فى كتفه ، وساعده ، وعنقه ، وجبهته ، وعلى الرغم من هذا ، فقد وثب جانبًا ليتفادى رصاصات المدفع الآلى ، قبل أن يضرب قدمه بالجدار ، ثم يدور حول نفسه ، ليركل (رودريجز) فى صدره بقوة ..

وصرخ (رودريجز) ، وهو يحاول إطلاق نيران مدفعه مرة أخرى :

- لن تفر .. لن تنجح هذه المرة أبدًا .

قبضت أصابع (أدهم) الفولاذية على معصمه ، ولوته فى قوة ، وهو يقول :

- ألم تنتبه إلى أنك كثير الحديث يا هذا ؟!

أطلق (رودريجز) صيحة ألم ، مع التواء معصمه ،



ثم يدور حول نفسه ؛ ليركل (رودريجز) فى صدره بقوة ..

وسقوط المدفع الآلى من يده ، ولكنه أسرع يستلّ خنجره الحاد من حزامه ، ويضرب به (أدهم) صارخًا :

ـ ما رأيك بهذا الفعل ؟!

أصاب نصل الخنجر ذراع (أدهم) ، ومزّق جزءًا منها ، فصرخت (جوليا) فى ذعر ، مع الدماء التى تفجّرت منها ، ولكن (أدهم) هوى على أنف (رودريجز) بلكمة كالقنبلة ، قائلاً :

ـ المهم أن يكتمل .

كانت ضربة تكفى لإسقاط ثور ، ولقد فجّرت أنف المكسيكى بالفعل ، وأطلقت منه دماءً غمرت صدره كله ، على الرغم من هذا فقد تشبث بـ (أدهم) فى قوة ، وهو يصرخ :

ـ لن تفعلها .. لن تفرّ من هنا .. لقد خسرت فرصتى فى النجاة ، لأضمن مصرعك هنا .. لن تفلت أبدًا .

لكمه (أدهم) لكمة أخرى فى فكه ، وهو يقول :

- هذا ما تستحقه أيها الوغد .

ولكن (رودريجز) تشبث به أكثر ، وهو يصرخ :

- لا .. لن تفلت .

ثم انطلقت من حلقه ضحكة عالية مجنونة ، وهو يكمل :

- هذا أمر سنفعله معًا .. سنلقى مصرعنا معًا .. الوقت لن يكفى لنجاة أحدنا .. لن يكفى أبدًا .

لكمه (أدهم) لكمة أكثر قوة ، صائحًا :

- خطأ أيها الوغد .. لقد تركت واحدة من سيارات (الجيب) صالحة للعمل .

انطلقت ضحكة (رودريجز) أكثر جنونًا ، على الرغم من الدماء ، التى تناثرت من أنفه المحطَّم ، وأسنانه المكسورة ، وهو يصرخ :

- قلت لك : إننى قد ضحيت بفرصة نجاتى لاقتناصك

أيها المصرى .. لقد أتلفت السيارة المتبقية ، قبل أن أهاجمك هنا .. لقد خسرت أيها المصرى .. كلانا خسر معركته هذه المرة .. حتى لو جريت بأقصى سرعتك ، لن يمكنك الإفلات أبدًا .. .. القنبلة ستنفجر بعد عشرين ثانية .. عشرين ثانية فحسب .

قالها ، وراح يطلق ضحكات مجنونة ، جعلت قلب (هوليا) يرتجف بين ضلوعها ، على الرغم من أنها لم تفهم ما يحدث حولها ، ولكنها رأت (أدهم) يستجمع كل قوته ، ثم يهوى على عنق (رودريجز) بلكمة كالقنبلة ..

وانتفضت كل ذرة من كيانها ، مع صوت القرقعة المخيفة ، التى أعقبت هذا ، والتى اتسعت بعدها عينا (رودريجز) عن آخرهما ، قبل أن يميل عنقه على جسده بزاوية عجيبة مخيفة ..

وعلى الرغم من مصرعه ، ظلت أصابعه متشبثة بسترة (أدهم) فى قوة ..

وبدون أن يضيع (أدهم) ثانية واحدة ، انتزع سترته ، وألقاها مع جثة المكسيكى بعيدًا ، ثم استدار إلى (هوليا) ، وحملها بذراعيه فى حركة مباغتة ، جعلتها تصرخ :

- ماذا هناك ؟!

صاح بها ، وهو يندفع خارج المكان :

- هناك قنبلة ، ستنسف كل شىء .

صرخت ، بكل رعب الدنيا :

- قنبلة ؟! ومتى ستنفجر ؟!

انعقد حاجباه بشدة ، وهو يجيبها ، دون أن يتوقف عن العدو :

- بعد عشر ثوان .

وجلجلت صرختها فى المكان كله هذه المرة ، من فرط ، رعبها وانهيارها ..

أما هو ، فقد ظلّ يعدو بأقصى سرعته ، عبر ساحة القلعة ، وعقله يستعيد عبارات (رودريجز) الأخيرة ..

« حتى لو جربت بأقصى سرعتك ، لن يمكنك الإفلات أبدًا .. »

أبدًا .

* * *



٩ ـ الختـام ..

امتلأ قلب المضيفة الروسية برعب هائل ، لم تشعر به فى حياتها كلها من قبل ..

رعب جعلها تصرخ ..

وتصرخ ..

وتصرخ ..

وكان الوقت يمضى بسرعة مخيفة ..

تسع ثوان تبقت ..

ثمان ..

سبع ..

وأدرك (أدهم) أن (رودريجز) كان على حق ..

مهما بلغت سرعة عدوه ، لن يمكنه الإفلات من الانفجار ..

أبدًا ..

لابد من البحث عن وسيلة أخرى إذن ..

أية وسيلة ..

ودون أن يتوقف عن العدو ، وهو يحمل (هوليا) بين ذراعيه ، راحت عيناه تدوران فى الساحة .

ثم توقفتا بغتة ..

توقفتا عند الدبابة ..

وبسرعة قصوى ، اتجه نحوها ..

ست ثوان تبقت ..

خمس ..

أربع ..

وبقفزة ماهرة ، وعلى الرغم من حمله ، وثب

(أدهم) إلى سطح الدبابة ، ثم أنزل (هوليـا) ، وهو يغلق قمة برجها في سرعة ..

وصرخت (هوليا) :

ـ هل .. هل ستحتمل ؟!

حملها في سرعة ، وشهقت عندما ألقاها داخل الدبابة ، صائحًا :

ـ دروعها ستحتمل .

ثلاث ثوان تبقت ..

اثنتان ..

وقفز (أدهم) داخل الدبابة ..

ثانية واحدة ..

وأغلق كوتها في سرعة وإحكام ، و ....

ودوى الانفجار ..

انفجرت قنبلة (س ـ ٤) ، في جهاز الاتصال الخاص بـ (لورا كيلرمان) ..

ونسفت البرج الذي يحوي حجرتها نسفًا ..

ثم امتدّ الانفجار إلى باقي أبنية القلعة ..

وأبراجها ..

وأسوارها ..

وارتجّت الدبابة العريقة في عنف ..

بمنتهى العنف ..

وتساقطت الأحجار عليها من كل صوب .

ولفحت النيران دروعها الخارجية في قوة ..

وصرخت (هوليا) ..

وصرخت ..

وصرخت ..

لم تدر كم تواصل صوت تساقط الأحجار ، وارتطامها

بجسم الدبابة ، ولا كم بلغت الحرارة داخلها ، قبل أن تتوقف تمامًا عن الارتجاف ، وتنبعث داخلها أبخرة داكنة ..

وعندئذ ..

عندئذ فقط ، توقفت صرخاتها ، وحدقت فى وجه (أدهم) ، هاتفة :

ـ هل .. هل نجونا ؟!

كان العرق يغمر وجهه وجسده ، وهو يقول :

ـ هذا يتوقف على أمر واحد .

سألته فى لهفة :

ـ وما هو ؟!

أدار عجلة كوة البرج ، وهو يجيب :

ـ كم الأحجار ، الذى تساقط فوقنا .

سقط قلبها بين قدميها ، عندما انقبضت عضلاته

كلها فى قوة ، وهو يحاول إدارة العجلة ، وهتفت مذعورة :

ـ هل .. هل أصبحنا سجناء هنا .. فى هذا القبر المعدنى ؟!

تجاهل قولها تمامًا ، وهو يدير العجلة بقوة أكبر ..

وأكبر ..

وأكبر ..

ثم استجابت العجلة أخيرًا ..

ودارت فى قبضته ..

وانفتحت الكوة ..

وعندما بدت السماء من فوقها ، ابتسم هو فى ارتياح ، ومسح العرق الغزير ، الذى يغمر وجهه ، قائلاً :

- نعم .. لقد نجونا .

صرخت (هوليا) بكل الفرح ، الذى تفجّر فى أعماقها ، ووثبت محاولة التعلّق بعنقه ، ولكنه التقط وسطها بحركة سريعة ، ودفع جسدها إلى أعلى ، لتغادر الدبابة العريقة ، ثم لم يلبث أن لحق بها ، وأدار عينيه فيما حوله ، مغمغمًا :

- يا إلهى ! لقد نجونا بأعجوبة ..

وكان على حق فى قوله تمامًا ..

فمن حولهما ، كانت القلعة قد تحولت إلى كومة من الحطام والركام ، والنيران مازالت تشتعل فى بعض أجزائها ، هنا وهناك ، وعلى الرغم من هذا ، فقد كانت السماء الصافية ، بالبدر المنير فى منتصفها ، وما يلقيه من ضوء فضى هادئ على كل شىء ، مخففًا طبيعيًا رائعًا لبشاعة الموقف ، فهتفت هى :

- هل تعتقد أن أحدًا سيأتى لنجدتنا ؟!

أومأ برأسه إيجابًا ، وقال :

- انفجار كهذا سيجذب حتمًا انتباه كل مخلوق حى ، على مسافة مائة كيلومتر على الأقل ، ولن يمضى وقت طويل ، حتى يكتظ المكان بممثلين لكل السلطات هنا .

قالت فى اهتمام :

- هذا يعنى أننا قد تجاوزنا المحنة .

غمغم :

- بالتأكيد .

مالت نحوه ، قائلة بابتسامة خجلى :

- ماذا عن اتفاقنا إذن ؟!

سألها فى حذر :

- أى اتفاق ؟!

منحته ابتسامة ساحرة ، وهى تقول :

- دعوة العشاء .

تطلّع إلى وجهها الساحر الفاتن ، الذى جعلها تبدو ، تحت ضوء القمر ، أشبه بتمثال من المرمر لآلهة الجمال ، ولكن ذهنه تجاهل كل سحرها وفتنتها ، ورسم صدره للمرأة الوحيدة التى أحبها ، فى حياته كلها ..

صورة (منى) ..

وبابتسامة هادئة ، هزّ رأسه ، وهو يقول :

ـ يا للنساء !

وعلى الرغم من أنه قد نطقها بالروسية هذه المرة ، إلا أنها لم تفهم ما يعنيه ..

لم تفهم أبدًا .